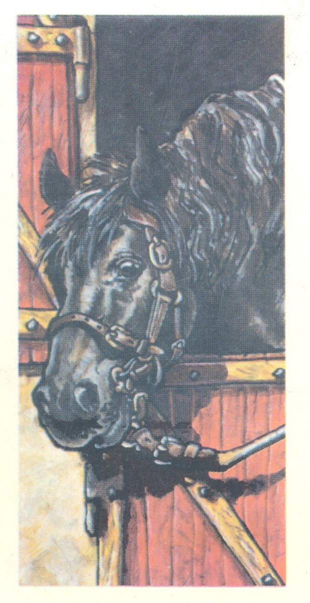
نيقولا اتاروف



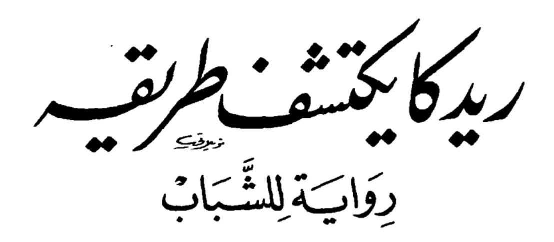
ريدكا يكتشف طريقه

رواية

ترجمة
نتيجة الحلاّق

الإشراف الفني زهير الحمو

نيقولا اتاروف

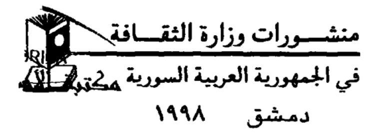


ريدكا يكتشف طريقه

رِوايَة لِلشَّبَابْ

تـرجَـمة

نَتيجَة الحلَّاق



منشـــورات وزارة الثقـــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٨

العنوان الأصلي للكتاب:

NICOLAS ATAROV

Le Cheval de

Redka Kostyria

Traduit du russe
par Odile Belkeddar

Illustrations de Vincent Descotils

ريدكا يكتشف طريقه: رواية للشباب = Le Cheval de redka koslyria / نيقولا اتاروف؛ ترجمة نتيجه الحلاق. - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٨. - ١٩٢ ص؛ ٢٠ سم.

١-٨٩١,٧٣ أ ت ا ر ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- اتاروف ٥- الحلاق مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع- ١٤٩٣/ ٩/ ١٩٩٨

حصان ريدكا كوستيريا

لم يكن لريدكا الملقب روديون المدَبْدم حياة سهلة ، أنه تلميذ سيء ، نبذه رفاقه وتورَّط مع رجال الشرطة الذين اتهموه بالمشاركة في إحراق دراجة نارية . لحسن طالعه ، صادف صديقاً لم يحلم به . انه عقيد يميل إلى الدمْدَمة ويهتم بالجياد . يعود إليه الفضل في تحول منحى حياة الفتى الصغير . وجد ريدكا باعثاً حقيقياً على الحياة في شغفه بممارسة بعض الأنشطة في الميدان والاعتناء بالجياد ، هذه الرواية الرقيقة والتي تعج بالحركة في آن ، تساعد على اكتشاف عالم المراهقين في الاتحاد السوفييتي سابقاً .

نيقولا أتاروف

ترجمة نتيحه الحلاق

نيقولا أتاروف

نيقولا سپر غييفيتش أتاروف (١٩٠٧-١٩٧٨) هو صحافي منذ عام ١٩٣٠ ونشر أولى قصصه الخيالية بدءاً من عام ١٩٣٦ . أصبح مراسل حرب أثناء الحرب العالمية الثانية .

عام ١٩٥٧ ، التحق بـ Literatournaia Gazeta (دورية اسبوعية أدبية ورفيعة المستوى) وأصبح رئيس تحرير جريدة Moskva، ولكنه اضطر إلى ترك وظائفه بعد اختلاف مع خطة الحزب .

قد اهتم أتاروف بشكل خاص بالقصة السيكولوجية وأثارت البعض من رواياته جدلاً واسعاً لأنه رفض دائماً مفهوم البطل الإيجابي .

لم يكن حصان ريدكا كوستيريا ، الذي كتب عام ١٩٧٠ ، موجهاً للأطفال مباشرة . ولكنه وجد سهولة في نشره في هذا المجال شأن مؤلفين كثر نشرت أعمالهم في منشورات الشباب» قبل البير يسترويكا .



الفصل الأول

ولد ريدكا في أسوأ شارع من المدينة يدعى راڤان «Ravin» . لم يفكر أحد على الاطلاق باعطائه اسماً آخر . كان جميع أهل المدينة يجهلون وجوده ماعدا سكانه . تعود أولى ذكريات ريدكا إلى سقوطه ذات يوم من جزع منتفخ لشجرة زيزفون هرمة كان يتسلقها . لكنه لايقوى على تحديد الزمان تماماً . كان في فناء الدار أكمة صغيرة يتزحلق عليها بزلاجة في فصل الشتاء؛ حوادث مرَّت في حقبة كانوا ينادونها فيها روديون غريون Rodion- Grillon ، ثم

لقب فيما بعد بروديون رونشون، أو ريدكا فقط، لأنه كان يذرف الدموع بغزارة لأقل «واوا» (ألم طفيف بلغة الأطفال)، يصيبه غير أنه وقع ذات مرة على الأرض وذراعاه ممدودتان إلى الأمام واصيب بجرح، نهض بقفزة واحدة ونظر حوله، لم يبكِ فالمكان كان خالياً، فمن يرثي لحاله؟ اكتفى اذاً بأن لحس الدم والتراب اللاصقين على يديه بكل هدوء، مضى زمن طويل على اقامته في شارع راقان حتى أنه لو سئل: «ماعمرك؟» لأجاب مثل شيخ صغير: «نسيت تاريخ ميلادي» وهذه كانت عبارة لأبيه. ليس لجميع الأطفال أب وأم ولكن، كان لريدكا والدان، لذا توجب عليه أن يدافع عن استقلاله.

أثناء الطعام، كان أول من يدفع طبق الملفوف من أمامه وقبل والده قائلاً:

«لم أعد جائعاً» وهو يقرع على بطنه مقلداً خُضر الجواد. كانت والدته تَعرف أنه اكتسب هذه العادة مع خاله بوريا في الصيف الفائت في الريف.

كان ريدكا يحب والدته ويطيعها، ولكنه يحتقر الأمهات اللواتي يحتضنَّ أبناءهنَّ بغباء وبعبارات مثل:

- غوغا، جلست ثانية في المكان الرطب!

- كلا

- كيف كلا؟ انهض رأساً.

أمر كان يدفعه بسرعة ليتمدد على بطنه فوق العشب، ذراعاه على شكل صليب، تضامناً مع غوغا الحقير.

كان يذهب وحده إلى صالون الحلاقة قبل بلوغه الخامسة اذ لم يكن لوالدته متسع من الوقت لمرافقته، يجلس على الكرسي ويتجنب هزّ ساقيه ويكرر العبارات التي حفظها عن ظهر قلبه:

- على مستوى واحد من الأمام وليس من الخلف، على الجانبين... هه.... على الجانبين، كان الحلاق، هو ذاته دائماً، يمرر بيده على رأس ريدكا، وبحركة سريعة يضع له حول العنق منشفة يعقدها جيداً. كان حلاقاً ممتازاً. وكان ريدكا يثق به ويعلم أن لاداعي إلى الخوف، ومن ناحية أخرى كانت صَلْصلَةَ المقص تروق له.

ليس لجميع الأطفال أب وأم ولايسكنون جميعاً في المدافن. كان ريدكا ينعم بهذا الحظ ولم يتنبه اليه إلا عندما

ذهب إلى المدرسة. لم يكن يسكن بالفعل داخل سور المقبرة بل في فناء واسع رصف ببلاط مستدير حيث شيدت كنيسة على مستويين: روديون فوق راڤان Rodion-Sur- Ravin تحمل اسمه بالذات. وكان جميع موتى المدينة يصلون إلى الفناء الصاخب، كان المصور يتخذ مكاناً مع منصبه النقال ويختبئ خلفه تحت ملاءة سوداء. وكانت غلاشا المرتدية قميصاً أبيض منشّى، تبيع مشروبات روحية في كشك؛ كان الناس يدعونها ضاحكين «طبيبنا»، في إحدى الزوايا، خلف مكتب الرّخام، كان صوت المطرقة يدق دون انقطاع. في هذا الفناء المرصوف بالبلاط والذي يهاجمه العشب صيفاً كان يرتفع بناء من أربعة أدوار.

كان آل كوستيريا، اعني ريدكا ووالداه، يسكنون في الطابق الأول، في إحدى الشقق التي كانت فيما مضى ملكاً لكهنة المدافن والتي أصبحت مثل شقق الطابق الأرضي مشتركة، ولاتزال المرأة العجوز التي كانت تحضر في الماضي خبز القداس تسكن هناك، كانوا يلقبونها «بابا- باغا» مثل ساحرات الحكايات، وكانت تتجول صبحاً ومساءً بجعيد

أبيض[1]، كان لها أيضا حفيد يتجول على دراجة نارية. قبل ولادة ريدكا. أُضيف على البناء ثلاثة أدوار ذات شقق مستقلة. لم يكن للبناية مصعد كهربائي. كان السكان يجلسون تحت شجرة الزيزفون للاستراحة. هناك، كان لاعبو الورق يضربون الطاولة وكان الأخوان أرخيبوف المتقاعدان: إيفيم الحارس والمدخن المدمن، ذو الرأس الحليق والقامة المذهلة الملقب «كولونيل». لم يكن يدخن السجائر بل غليوناً حصل عليه أثناء الحرب؛ كان ريدكا ينظر بطرف عينه من فوق كتفه ويكشر بسبب الدخان. معهم، يبدو كل شيء ممتعاً. لم يكن والده يحب اللاعبين وعندما يمر أمامهم وهو ذاهب إلى كشك غلاشا كان يهزأ بهم ويصفهم بـ«الرياضيين». ومن جهتهم كانوا يميلون برؤوسهم مثلما يفعلون عند تجنبهم الدخان. على المقاعد الخضراء المحاذية لشجر الزعرور والسياج كانت النساء تجتمع مساءً للثرثرة:

-عادت سينكا إلى ممارسة الحب ثانية، تبدأ احداهن.

---

١ - الجعيد هو كلب مجعد الوبر طويله.

فتصلح الأخرى: يبيتكا.

تتأكد الثالثة: بيتكا؟

لم يكن ريدكا يطيق رؤية المقاعد حتى في الصورة. لم تكن والدته تثرثر مع أحد. فليس لديها وقت لذلك.

كانت هناك ألعاب الخيل الخشبية ورمل للأطفال تغطيه سحابة من الذباب.

كانت النساء تتنهد ناظرات إلى أطفالهن ويقلن: «احبيهم بقلبك، ولكن ربيهم بيدك!».

كان ريدكا يتمتع بموهبة حفظ الأمور التي لايفهمها. كل يوم أحد، كان يأتي من المدينة رسّام بليد: يقضي نهاره هناك، ينصب مقعده ولوحته في اطارها ثم يرسم كنيسة المدافن. كان أعسر، يتذكر ريدكا ذلك لذهوله من المنظر. وإلى لوحات الرسّام يعود الفضل باكتشافه جمال روديون سور راڤان. القبة بحروفها الصدئة، والنوافذ التي تشبه كوى الرماية، ودرجها الأحمر بقرميده، ومشكاتها التي تتوسط الواجهة حيث نصب تمثال القديس روديون الذي يحمل اسمه. في لوحته، كانت السماء أكثر زرقة، والغيوم

أكثر استدارة، ودرج مدخلها أكثر احمراراً، ورروديون أكثر بياضاً، والعشب أكثر اخضراراً، وكان الانطباع يتبدل بتبدل المسافة التي تفصل العين عن اللوحة: هذا هو نمط الرسم الذي كان يتبعه، كان يرسم ليبيع ويجب أن نصدق بأنه كان يملأ جيوبه في السوق. وهذا أيضاً كان موضوع ثرثرة للنساء:

«بمنجل من فضة تحصد سنابل من ذهب». وكنّ يزمُمن شفاههن، لايزال ريدكا يذكر هذا جيداً لأنه وهب أيضاً مقدرة على تقليد الناس بحركاتهم وسكناتهم. وعندما كانوا يصطحبونه إلى المدينة، إلى الحديقة العامة، كان يكفيه الوقوف خمس دقائق أمام الاوركسترا في الهواء الطلق، ليثير ضحك والده وهو يقلد غازفي الكمان الذين كانوا يضغطون جميعهم على الأوتار بينما كان قائد الفرقة يحرك عصاه باسترخاء ليبرز كفيه.

كانت الباحة تزداد حركة أيام الأعياد، ترفع الناطورة روَزْا الاعلام فوق الأبواب ويجد ريدكا أنه من المؤسف أن تنزلها بعد مرور يوم واحد. وتعرف أيام الأسبوع أيضاً

أنواع أنشطة لابأس بها، بعد الظهر، كان الموتى يصلون من المدينة ثنايا أو ثلاثاً بنفس الوقت. كانوا، فيما مضى، يصلون تجرهم أحصنة مغطاة بقماش أسود وفضي والآن يصلون في حافلة القرية التي تدخل الباحة سيراً إلى الوراء بسبب ضيق الشارع فتحدث من جراء ذلك بلبلة مألوفة اذ، كان المارة ودفانو الموتى يتحركون بعصبية بالغة لتوجيه العمّال، وفتيات صغيرات تعرضْنَ أزهار الأضاليا على ذوي الموتى المفجوعين، بينما كانت زمرة من المراهقين تتسكع وقت انقطع ريدكا عن مرافقتهم منذ زمن قصير، وكان أحدهم وهو فتى ذو وجنتين بارزتين تركت الجدري آثارها عليهما يبدو مثيراً. سبق لوالدة ريدكا أن قالت: «انه رقص على قبر والده بمناسبة ذكرى وفاته!» كان اسمه لاغوت La Goutte دون أن يعرفوا السبب. ذات مرة، عندما اقترب ريدكا من لاغوث أمسكه بطرف أنفه قائلاً لأحد رفاقه: «انظر غبياً لايدرك مايقال له» لم يسامحه ريدكا على هذه العبارات وابتعد عن الزمرة. وكان يجهل أنهم يؤلفون «عصابة» إلى أن فاجأ حديثاً: «على الزمرة أن

تدبر مؤامرة ما، لايُشاهد أحد سواهم في الفناء أو مخزن الغلال!».

كانت موسيقى البلدة تعزف لحناً جنائزياً وخيَّم الهدوء على الباحة بعد أن غادرتها حافلة النقل. وحدها ابنة المهندس الذي يسكن في الدور الثاني كانت تقفز على الحبل. كانت تثير فضول ريدكا بكرمها الحاتمي، كانت توزع على الجميع أفضل نوع من السكاكر «ميشكا الشمال العظيم». ولكنه فهم فيما بعد أنها لم تكن غبية اذ كانت تجمع ورق التوضيب الفضي وتريد أن تؤكل السكاكر سريعاً، يجب أن نتدبر امورنا في الحياة.

تحت سلم، المدخل، كان كلبان صغيران يتنازعان على قبعة قديمة، وكان الهر ماشكا يتسلل فوق الافريز ويدخل من كوة النافذة بقفزة واحدة. وهناك سنجاب مضطرب لايهدأ في القفص المعلق على نافذة من الطابق العلوي. خلف الكنيسة. ومن جهة المذبح، كان يوجد في الماضي بيت خشبي خصص للقندلفت. ويقال إنهم حولوه حطباً للتدفئة أثناء الحرب. لم يبقَ منه سوى كومة من

الجص والحجارة نبتت فوقها أشجار الحور الرجراج، وأصبحت مكاناً تجتمع فيه الزمرة التي يرأسها سيترون. كان يسير مزهواً بقبعة صفراء أنيقاً ببنطاله العسكري وحذائه الأحمر. لم يكن يضحك على الاطلاق، كان يعلن أمام الجميع بابتسامة هزء:

- اليكم معزوفة جاز نظمتها أرملة المرحوم، عنوانها «دموع قردة عجوز». ويحدث الانفجار! «انها قرقعة طناجر!» كانت تقول النسوة الجالسات على المقعد.

كان جميع الفتيان يطيعون سيترون، الفتى الذي سبق له أن خبر الحياة في الاصلاحية ويدعي أنه كان مسروراً فيها. كان يتحدث عن سجائره المفضلة ويشرح كيف يفتن الفتيات ولماذا يشغف بالأشياء الجلدية، يتباهى بسترته ذات السحاب وبحذائه الحاد الطرف وقفازه السميك المثقب. كان ريدكا يعرف مصدر النقود التي يصرفها سيترون، اذ كان يرغم صغار السن على جمع الزجاجات من تحت مقاعد ميدان الخيل، كان ريدكا يرفض العمل معه. ذات يوم، انتزع سيترون من عين ريدكا قزارة بزاوية منديل.

تماسك نفسـه وهو يضـغط على أسنانه ويركن بقـوة على ساقيه .

– قضي الأمر ! قال سيترون وهو يدل على الغبار .

شعر ريدكا بالفخر لاحترام أحد البالغين له . لكن لاغوت قلب الموقف رأساً على عقب اذ أخبر أن والد ريدكا الذي كان «جوكي» أصبح حارساً في الاسطبلات بعد أن سرق كيساً من الشوفان ولم يتقاسم الأرباح مع سائر الخدم .

– والدي شريف ! احتج ريدكا .

أطلق لاغوت مزحة لم يفهمها ريدكا :

– نعم ، يده اليسرى شريفة ! هي التي يخبئها وراء ظهره . . . ولكن اليمنى تستغل كل مناسبة .

سأل ريدكا بسذاجة : – لكن ، لماذا يده اليسرى شريفة؟

سؤال أثار ضحكاً صاخباً .

- سبق أن قلت لك هذا! لفت لاغوث انتباه سيترون.

استدار ريدكا بسرعة وغادر غيضة الحور الرجراج. لم يكن شعوره بالذل بسبب والده يضاهي غضبه من نفسه. كم كان غبياً! . . . إن يده اليسرى شريفة لأنها عاجزة!

كان حب ريدكا لوالده أقل من حبه لوالدته ولكنه لم يكن يخجل به. كان يشرب وعندما يسكر قليلاً يزداد فرحاً ومزاحاً:

- أتريدان ابتلع وسادتك؟

- لاحاجة لذلك، بابا!

- لاتخف، سأعيدها وتجف تماماً!

- سوف تخاصمك ماما!

- وأبتلع والدتك أيضاً!

ذات مرة، أجلسه فوق الخزانة وجعل كأس خمر في يده وعلمه أن يصيح: «كأس النساء الجميلات!» قهقه الاثنان ورمى الوالد برأسه الأجعد إلى الوراء واستمر في

الضـحك حتى خـرجت الوالـدة من المطبخ مـذعـورة من الصخب. باختصار كان على قدم المساواة مع والده الذي كـان سنداً له في اللحظات العـصيبـة: ولكي يعبـر له عن امتنانه كان يسليه بنقل العبارات المضحكة التي كان يسمعها في الفناء، وكان الوالد يحب أن يتذكر الجوائز التي ربحها في سباقات الحواجز قبل أن تكسر كتفه، ويخبر بكل طيبة خاطر أحداث حياته في سن الشباب عندما كان حارس خيول ولكن أيَّ حارس! في إحدى المزارع الحكومية في الاتحاد السوفييتي في الألتاي: كان يمكنه، وهو على ظهر حصانه، أن يقطف فراولة في قلب غابة صنوبر سبخة.

- ياله من كـذّاب، والدك! ودون خـجل! كـانت تتعجب الوالدة والفرح يشع من وجهها. كان ريدكا يلاحظ المبالغة غير أن هذا كان يعجبه.

بعـدئذ أصبح والد ريدكا سائق عـربة في البيوت الزجاجية في البلدة وحصل فقط على حصان هرم يجر العربة، يدعى كلوبيك. بين الفترة والأخرى، كان ريدكا يحمل الزاد إلى والده: فاعتاد على البقاء إلى جانب

كلوبيك، يداعب عرفه وخاصرتيه معجباً من صبره تجاه مصاعب الحياة. وكانت عينه اليسرى مخبأة تحت دفتر قديم شرح على هوامشه حُصر بين الخد والزمام ولم يكن الأمر هذا يزعج الحصان. عندما كان ريدكا يشعر بالوحشة، كان يقصد معمل المعكرونة حيث تعمل أمه بغسل الطناجر. كانت أفضل الأمهات ولكن كان من الصعب عليه أن يتخيلها في بدء شبابها. قبل الزواج، عندما كانت دعوباً. في ذلك الحين، كان شقيقها بوريا يسكن في المدينة، حضر صديق لزيارته وكان «جوكي» في سباق الخيل. انه فتى جميل، لعوب، ذو شعر جعد، رشقته بمزحة عن الزواج- وكانت البداية. تزوجا وكان هذا حسناً، ثم رزقا بريدكا. كم كانت تحب صغيرها غريون!

«ماما، تعالي بسرعة، ضربني فيلاس...». كانت تراه يعدو حافي القدمين وتحذر أنه كان يبكي منذ وقت طويل، منذ ذهابها إلى السوق، أنهكه البكاء، وتحولت شهقاته إلى حازوقة لايسيطر عليها. كانت تأخذه بين ذراعيها. تقبله وتعزيه ماامكنها. كانت تحبه لأنه كان طفلاً ولاتنتظر شيئاً منه، تلاشت هذه العاطفة فيما بعد.

استمرت في حبها له مثل الماضي ولكنه لم يعد الطفل الذي سبق أن تمنَّته .

انقطع زوجها عن تسليتها وقد فات الأوان لتغيير الأمور . أولاً جرحت ذراعه واضطر إلى التخلي عن مهنة الجوكي ثم حصلت قصة السرقة التعيسة ، فابعد عن السباق . وجد عملاً ولكن هذا لم يمنعه من الابتعاد عن عائلته . كان يكره عمل سائق العربة وفقدت ليزا كوستيريا كل أمل في استرجاع أي جزء من أجره .

سرعان ماكوَّنَ ريدكا فكرة وجيزة عن البالغين . فالعبارات الرتيبة التي كان يكررها والده السكير ، وعبارة لاغوت «ألا ترى أنه غبي؟» وكلام غلاشا («خذ للسادة بسرعة وقل لهم : خدمة! وسأعطيك سكرة لو شربوا . . . ») وقصة أمه المنهكة التي تخبر لماذا أُبعِد زوجها العظيم عن السبق ، كل هذه الأمور تعجل في نضج ولد قبل بلوغه .

سبق لريدكا أن قضى فصل الصيف عند جدتيه . كانت الاثنتان على قيد الحياة ؛ وتسكنان في قريتين مجاورتين ، جدته لأمه في كنابيفكا والأخرى في مالي

بوتشير. كان أحسن حالاً عند الأولى لوجود الخال بوريا الذي كان يعمل محاسباً في الكولخوذ. كان ذا مهارة يدوية ويصنع أشخاصاً من الأسلاك الحديدية التي يثنيها أو يضفرها. لم يرزق ولد فصبَّ كل حنانه على ريدكا. ساعد الطفل على اكتشاف الفطور الصالحة وجنيها، والاستحمام في النهر، والنزهات على صهورة الحصان... كان طيب القلب ويعتقد بالحكمة القائلة: «الانسان للانسان صديق ورفيق وشقيق». كانت الجدة تعلم الطفل الصلاة ولكنه لم يرغب فيها كثيراً لأنه سجَّل في دماغه ماقاله الخال بوريا بهذا الموضوع «تود أن تعلمك أن تدل باصبعك على رأس فارغة إلى معدة خاوية». هذا ماكان خطأ بالنسبة للمعدة. اذ كان ريدكا في الريف يأكل مثل أربعة أشخاص: أحياناً، كان شعور تام بالغبطة يغمره ولم يعد بحاجة إلى شيء ما أو شخص ما بل يرغب فقط بأن يكون مع المهر وأمه الفرس المكدونة إلى برميل ذي عجلتين؛ وصرير العجلات على الطريق خلف سياج الحديقة، والنبع المختبئ تحت أشجار السندر، وأصوات صفارة قاطرة حادة مثل أشعة الشمس، والحزم الضوئية المتسربة عبر الألواح الخشبية إلى الغرف

السوداء في طرف الحديقة. كان كل شيء في الريف يجعله يرى الحياة بلونها الوردي. قد لايعرف أن يشرح لماذا كان قلبه مغموراً بالثقة عندما ناداه خاله بوريا وهو يمر ذات يوم أمام نافذة مكتبه المفتوحة.

يوم الرحيل، في مطعم المحطة، تناول ريدكا الطعام معه قبل صعوده إلى القطار. لم يعجبه البودينغ بالشعيرية وشراب الفراولة فطلب شرحة مقلية بالبصل. وطلب أيضاً أن يحملوا له من الطاولات المجاورة اناءين من الكمون. كان بوريا يرتدي سترته المخملية وينظر إليه يأكل مثل كلب ذكي.

بعد عودته إلى المدينة، حصل حدث غريب فقد على أثره ثقته بنفسه. ترفع إلى المرحلة الوسطى وتبدلّت معلمته. تراكمت علامات سيئة طوال الفصل الأول. أضف إلى ذلك محصلة أخرى: سُجل اسمه في لوحة اعلانات العقوبات بسبب سوء سلوكه وهذا يعني دعوة لذوي أمره. عندما استدعيت والدته لمقابلة المدير دلّها عليه تلقائياً معلقاً في الممر. «انظري ياماما، أيّة صورة كونوها عني!» لم تصدق عينيها وتألمت لأجله. اذهلتها شجاعة ولدها. كان يشكو نفسه. لم يكن هكذا الأطفال الآخرون.

في المنزل، استمرت الحياة برتابتها، لم يتغير شيء سوى ماشكا، الهرة السوداء. التي كان يتزايد حجمها لأنها تنتظر هرراً صغيرة. قد اسودَّ خطمها وتلوَّن زغب بطنها بلون أصهب فوق سواد قوائمها الفحمي. وفي شقة كوستيريا ذاتها كانت تعيش راَوزا التتارية الثرثارة وليلكا عاملة الجص في مقلع خلف الوادي. كانت ليلكا تقضي سهراتها في المدخل، معلَّقة بسماعة الهاتف تمزح وتردد: «لست عرجاء!» كما لو كان يتوجب عليها اقناع عشاقها الكثر بأن ساقيها كانا متشابهين. في الصباح، قبل أن ترتدي قميص عملها القذر. كانت تلف شعرها حول اناملها. كان ريدكا ينظر اليها عبر الباب المفتوح وهو يفكر برغوة الصابون التي تعلو غسيل والدته.

- مالك تنظر اليَّ؟ لست عرجاء!

كانت ليلكا وأصدقاؤها العمال المطليون بالجص أحد المواضيع المفضلة لتأمل ريدكا؛ كانوا يحتفظون بسر يجهله. وذات يوم سمع في السلم أحد العمال يقول للآخر:

- اذهب اليها صراحة، لاأمنعك من هذا، اني لاأعيش معها. لنقل إنها تلائمني. في ذلك اليوم، وللمرة

الأولى، تسارعت الأسئلة إلى ذهن ريدكا، تساؤلات عن ليلكا، لم يكن يحب رؤيتها على الهاتف. طوال السهرة، تكذ وتكذب وتكذب. كـــان والده يكذب ولكن ليس للخداع بينما كانت ليلكا تخدع الجميع.

في شـهـر أيلول سُجن والده، بيـسـاطة لم يعـد إلى المنزل. ولم يدرِ أحد تماماً ماقام به، قيل إنه عوقب بالسجن مدة أسبوعين من أجل أمر تافه. قصة غريبة لها حسناتها وسيئاتها: كانت احدى سيئاتها رؤية والدته تستسلم للبكاء بالاضافة إلى أنها أصبحت فظة وترغم ريدكا على الاهتمام بالحصان قبل الذهاب إلى المدرسة لئلا يموت في مكانه، واحدى حسناتها: أصبح بوسع ريدكا أن يتغيب أحياناً عن الدروس الأولى لوجود مبرر له. في الصباح، كان يسقي كلوبيك من الدلو مباشرة، ثم يقدم الطعام للهررة وهذا عمل يروق له أكثر: كانت تتسابق نحو الصحفة وتبتعد عنها شبعانة متعثرة، يغطي الحليب خطمها الأسود كما الجبس وجه بنَّاء.

ولكن لهذا الموقف، على وجه عام، سيئات أكثر من الحسنات: الوقت يمر ببطء متزايد والحياة تتلون بكآبة كثيفة

بعد أن كانت أكثر جمالاً في العام الماضي. كان ريدكا عندئذ عضواً في نادي الشطرنج. كما أنه صنع دمية هنأته عليها نينيا ڤلاديمير وڤنا ووجدتها تشبه بطرس الأكبر. وكذلك حاول العزف على البلاليكا، وتعلم التطريز - قطبة الصليب - ولكن هذا العمل بعث الملل.

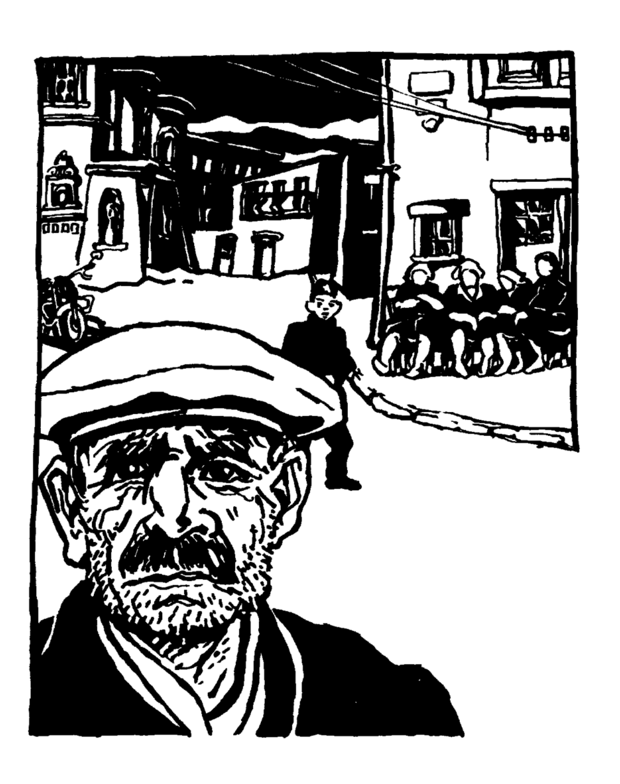
ذهب برفقة صفه إلى المسرح، أعجبه إلى درجة أنه حلم به. وفي الصباح أخبر كل شيء لوالدته وكان لايزال يضحك:

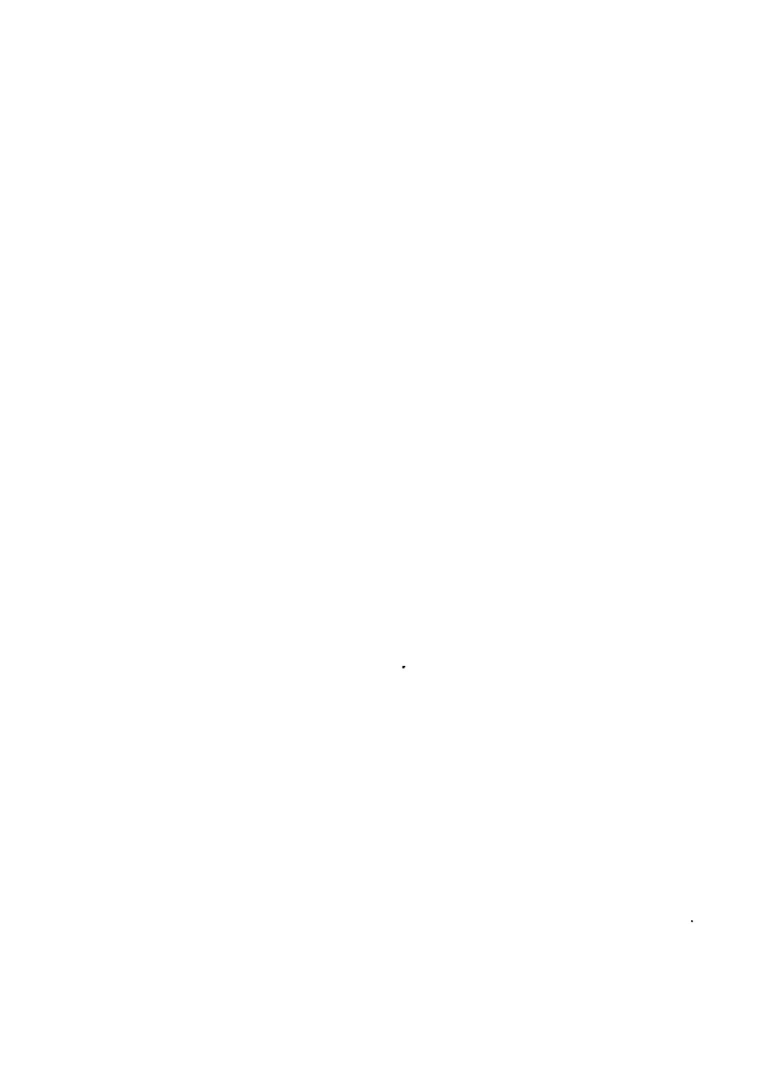
- كان ضباب كثيف جداً على خشبة المسرح، وكان يصعب على الممثلين أن يشاهد بعضهم البعض الآخر وقد تجمدوا برداً. رفض البعض أن يمثلوا واصيب أحدهم بنوبة سعال شديدة! . . .

سألت والدته:

- وأنت، ألم تصب بحمى؟

وكان بالفعل صوته يصفر وأنفه يسيل.







الفصل الثاني

في أمسية أحد السبوت والوقت متأخر، أحرقت العصابة دراجة بخارية صغيرة. كان ريدكا معهم. وكان الجميع وفي مقدمتهم سيترون يجهلون طريقة تنفيذ العملية. صنع سيترون فتالات بأوراق الصحف ثبّتها بين قضبان العجلة والمقعد. ثم رشّ البنزين فوقها ورمى عود ثقاب مشعل ثم هرب. جلس الجميع القرفصاء بين الأشجار الكثيفة يتأملون سيترون في المؤخرة أسوة بأي قائد هذا ماأوحى بانطباع غريب عنه. بل كان يهز ذراعيه وهو يركض مشيراً إلى «أمر بأن يتفرقوا» ولكن الجميع كانوا

يعدون الواحد تلو الآخر. كان ريدكا في المؤخرة، التفت إلى الوراء مثل لص وهو يلهث من التعب، فرأى من خلال الأشجار الدراجة تحترق. كان البنزين يحترق وهو ينساب من المستودع وينتشر تحت العجلات وكانت ألسنة نارية تنبعث من بؤرة النار مرسلة أضواءها بتفاوت إلى مدخل المدافن وقوسها الحجري حيث كانت تبرز حجارة القرميد الأحمر التي دُوِّن عليها باللغة السلافية: «اقبلني ياسيدي في ملكوتك» كانت ألسنة النار تتراقص مجنونة؛ دوى صوت صفَّارة، انها صفارة الشرطي. فتحت نوافذ جميع الطوابق بعنف. تملك الرعب ريدكا لمجرد تفكيره بأن حصانه معرض للهلاك «أنه مقيد». لم تكن راوزا تغلق بابها مطلقاً عندما تكنس في الخارج. تسلل ريدكا إلى بيتها في الظلام. واغتسل بكل اهتمام بالصابون ليخفي كل أثر من رائحة الحريق.

ولكن والدته لم تكن مجنونة. بعد رقاده، تسربت إلى أنفسه رائحة طبخ، ثم أحس بقبضة يد والدته تمسك بشعره وتغرق وجهه بالوسادة دون أن تنطق بكلمة، مرة، اثنتان، عدة مرات متتالية... هو أيضاً. لم يقل شيئاً كأن

الأمر لايعنيه. ابتعدت الوالدة أخيراً وهي غارقة في صمتها. بقي ريدكا متقلصاً، مفتوح العينين يسيطر على خوفه وهنأ نفسه لأنه لم يستسلم.

كان يجهل سبب مشاركته بهذه القضية، غير أنه شعر بأنه تحرر: من خوفه، من شخص ما (ولكن من؟) من هذه النار المنبعثة من بركة البنزين. . . وابعدت نزهته في الأدغال الملل والعزلة في الشقة المهجورة والوالد «السجين» والعلامات السيئة وتسكعات ليلكا في المدافن.

كانت الدراجة لڤاسكا Pétonine بيتونين الذي يسكن الشقة رقم عشرة في بنايتهم ويتبادل القبل مع ليلكا كل مساء فوق القبور: كان يمكنهما الوصول إلى المقبرة سيراً على الأقدام لقربها ولكنهما يفضلان ركوب الدراجة في الظلام. حلم ريدكا في نومه بالريف، بزقزقة العصافير، وطنين النحل، بنباح الكلاب وقوقأة الدجاج، بصرير العجلات على طريق ترابية. عندئذ استيقظ مرتعباً مرة أخرى. في الطابق الرابع، كان من عادة كولونيل الرجل ذي الجمجمة الحليقة، أن يدخن أمام النافذة المفتوحة وهو يرتدي البيجاما. هل يمكن أن يبلغ عنه في حال مشاهدته والتصرف عليه؟ ثم عاوده النوم.

في الصباح، علم أن العصابة استدعيت إلى مقسم الشرطة: سيترون Citron، لاغوت La Goutte، تينيبرو Ténébreu وتيت دي باي Tête- de- Paille: قد أرغمهم المفتش پوتيكين على النهوض من سريرهم. لماذا لم يستدعِ ريدكا؟ هل أشفق على طفل: أم ترك له الوقت ليستيقظ قبل أن يطلبه؟ هذا في حال أن راوز دافعت عنه؟ ماعساه أن يحدث لمن استدعي من رفاقه؟ تظاهر ريدكا بالبراءة مثل جميع الجيران. وذهب كعادته، يجر قدميه، ليمشط كلوبيك قبل الذهاب إلى المدرسة.

ولكن الأمر لم يكن بالبساطة التي نتصورها. عادت والدته من العمل باكراً مدعية أنها مريضة. وبعد عودته من المدرسة، اجتهد ريدكا في تناول كل ما قدمت له من طعام: عجة، جبنة وعصيدة تفاح قطف من بستان جدته. ثم خرج. كان فيسكا بيتونين ينقب بين حطام دراجته مع ميكانيكي وجده صدفة. وُضِعت العدة فوق غطاء وكانت مؤلفة من المفاتيح الانكليزية ومفكات براغي وكراكر من الشريط العازل: ولولا، بابا- ياغا الساحرة، لما حصلت أية قصة. من نافذتها، التقى نظرها بنظر ريدكا. كانت تداعب

كلبها بيدها العظمية. توقفت وظهرت فجأة على درج المدخل.

- انه هو، مُشعِل النار! أمسك به! انه طفيلي، تافه!

كان فيسكا يبتسم جاثياً على ركبتيه بينما كان مساعده يدخل أنفه في الخزان المحروق ويبدو أنه كان يجد الأمر مسلياً. وكانت العجوز غاضبة بطريقة مضحكة. قال ريدكا بلهجة لطيفة:

- انتبه، العجوز تنفجر!

ولم يكن يدري ماالعمل، هل يجب أن يهرب أو أن يبدو طبيعياً؟ ويخشى بنوع خاص أن تسمع والدته.

صرخت بابا ياغا:

- يجب رميهم بالرصاص، هؤلاء اللصوص!

وأجالت نظرها محدّقة في جميع النوافذ لعلها تجد بعض الشهود:

- الأب لص! والابن يسير على خطواته!

أجاب ريدكا:

- هذا قول مبتذل ياجدة!

بالحقيقة، لم يكن يخشى المرأة العجوز، كان الكلب ينبح على نافذتها. نظر الناس بعضهم بعضاً. انتصب فاسكا.

- تتحدث عن دراجة! آلة قديمة! لاتكاد تصلح للبيع بوزنها القائم!

أدرك ريدكا أنه كان يخاف سيترون وأراد التوقف عند هذا الحد.

- هذا ماأقول...

توقف ريدكا فجأة عندما لمح والدته، ادّعت أنها مريضة لتحميه!

نادت ابنها: - هس، ياشيطان!

وأضافت متوجهة إلى العجوز، بصوت ابح:

- اذهبي اذن ياانّا بتروڤنا وانضوي إلى الحزب الفاشي! معهم، يسمح حتى بتعليق طفل برجليه وقطعه إلى جزئين!

وتركت يد ريدكا التي كانت تشد عليها بعنف لتلقي التحية الفاشية. فاستغل ريدكا السانحة وهرب سريعاً متوجهاً إلى المقبرة.

كان أمام الآخرين يجتهد ليتصرف بشجاعة. انه متبجج صغير مثل والده. وعندما أصبح وحيداً، قصد ممراً جانبياً. واستعاد سرعته المعتدلة ثم توقف. كان نسيم رطب يهب منذ الصباح وتتراكم أكواز الصنوبر. بحث عن شجرة الصنوبر المفضلة لديه. لقد فقدت الكثير من ثمارها.

- تكلمي اذن، ارتكبت حقارات! وانتظر ريدكا أن تحتج الشجرة.

منذ طفولته المبكرة، كان يحب تخيل أشياء لا وجود لها: كان يرى أحياناً بالوناً يقفز وحده من النافذة، أو هراً ممدداً على جانبه يرضع جرذاً صغيراً. لم تكن أفكاره الغريبة تخيفه. سار في شارع راقان ممسكاً رأسه بين يديه. ضحك وألقى نظرة حوله ليتأكد من أن أحداً لم يلاحظ وجوده. بعد ليلة الجنون التي مرَّت عليه، كان النهار طويلاً ومحزناً للغاية. خفقت أجنحة غراب فوق شجرة صنوبر. ظن ريدكا أنه يسمع صوت مجاذيف فوق الماء كأن الطائر كان يصارع التيار ليطفو ويهرب إلى البعيد البعيد.





الفصل الثالث

مـرَّت بضعـة أيام ونسي كل شيء. كـان ريدكا يعلو دراجته ويقودها بعزم نحو الوادي. وأشعة الشمس تتلاعب فوق القبور والسياجات التي تغطيها صريمة الجدي وأشجار السندر الذهبية والمشعة.

- خفف السرعة قليلاً! هل تسمع؟ خفف السرعة قليلاً.

كان جينكا يعدو خلف الدراجة ملتفاً بوشاح عقده على صدره، يغمره السرور بمرافقة ريدكا ويصيح بأعلى

صوته: «خفف السرعة قليلاً!» ضعف الصوت المنبعث من القلب لأن ريدكا كان يبتعد بسرعة كبرى على دراجة والده. توقف واسند الدراجة إلى جزع شجرة السندر لينتظر جينكا. سارا بمحاذاة ساقية كانت تنساب في أسفل الوادي، كمية ماء قليلة مجهولة لاتشبه «السوب»- النهر الذي يستحم فيه ريدكا عادة- ولكنها مجرى ماء حقيقي مليء بالأعشاب وفقاقيع الهواء.

-بئس الحياة! قال ريدكا بصوت اخن كعادته في كل مرة يشعر بفرح مفاجئ معجباً بهذا العالم السفلي. بئس الحياة! كان يصرخ بأعلى صوته.

وصلا إلى مرتفع يطل على البيوت الزجاجية المترامية في البعيد بينما كانت تنبسط أمامهما ارض بور تحيط بالمقبرة-

في ظل افريز، كانت تليغة[1] مرفوعة الذراعين وحصان والده المربوط إلى وتد كان كلوبيك مسترخياً وعصافير الدوري تقفز بين حوافره تنقد الروْث.

١- عربة روسية بأربع عجلات.

اقترب منه ريدكا ممثلاً دور المعلم:

- هيًا! هيًا! يكفيك نزوات! انك تعض أيها التافه!

وضربه على خطمه بقبضة يده بينما كان جينكا واقفاً على بعد، امر أعجب ريدكا الذي كان يعلم أن الحصان لايعضّ. انه حيوان طيب مسكين برأس كاهن عجوز طيب، اخرج ريدكا من جيبه قطعة من السكر ووضعها بين أسنانه الصفراء. تناولها الحصان برشاقة وضرب بحافره. قهقه ريدكا ضاحكاً:

- هل رأيت؟ يطلب المزيد منه! والدي علّمه هذا... آه... ياأبله، يكفيك نزوات! كان ريدكا يتكلم حيناً بصوت طفولي وآخر بصوت رجولي ضخم ويشعر بارتياح مع الحصان فيتسرب الدفء إلى قلبه من القدرة التي يستمدها منه. كان يصفعه صفعات خفيفة ويداعب خطمه ويمرر يده على خاصرتيه النحيلتين. ولم يتوقف عن الكلام لسعادته بوجود شاهد إلى جانبه.

- كان والدي يقوده. أوشك على الموت تحت ضربات السوط.

- لايأكل سوى السكر؟ استفهم جينكا بأدب.

نظر ريدكا اليه نظرة حذرة: أترى هل سخر منه؟

- نقدم له عشباً نحصده من فوق التلال ونشتري له الشوفان فقط. غير أن والدي يوفر الشوفان ولايعطيه الكمية الكافية. أنا أرى كل شيء.

- وماسمه؟

- كلوبيك! انه عجوز هرم، يصلح للمسلخ فقط. قضى ماعليه. دي دي.. كان الحصان يجيب على هذه العبارات القاسية بحركة من اذنيه وخطمه الرمادي وذيله القليل الشعر.

- ولكن لماذا يتنفس من فمه؟ تابع جينكا.

- مصاب بالتهاب جيوب.

- ماذا؟

- نوع من الزكام. عندما يخرج والدي من السجن، سيعمل بصيانة الطريق مع كلوبيك. سيموت جوعاً لو بقي هنا: خلال ثلاث سنوات وصل عدد سائقي العجلات إلى الخمسة. كان جينكا يبدو سعيداً.

- هل تصغي اليَّ؟

غرّد وقواق بحث عنه ريدكا بعينيه.

- اني لاأعتقد بتنبؤات الشؤم، قال وهو يمد ذراعه نحـو كلوبيك يجب ابدال طوقـه. هل رأيت؟ قـد أدمى غاربه (مابين العنق والصهوة عند الجواد).

- انه غـاربك الذي سـأهتم به! صـاحت أمه بصـوت مزعج وهي تخرج من الأدغال. يبدو أنها كانت تبحث عنه منذ زمن غير قليل.

انطلقوا بخطوات واسعة، الوالدة في المقدمة وجينكا في المؤخرة يجر الدراجة.. استعادت الأم أنفاسها بعدما وصلت إلى حقل يلعب فيه صبية بالكرة.

نزعت منديلها ثم أعادته: اصطنع ريدكا اللامبالاة.

- ماذا تنوي عمله فيما بعد؟ سألته بلهجة متأثرة.

- لاأدري، أجاب بلهجة مماثلة وأوشك أن يضيف:

- إلى أين نحن ذاهبون بهذه السرعة الجهنمية؟

- إلى محكمة الأحداث.

بدأ الظلام يخيم وخفتت أصوات النهار. كانت أوراق السندر المائتة تملأ الوادي. وكلب منهمك يعدو من جهة إلى أخرى، وديك يتسكع مع بعض طيور الدجاج. فجأة، خطرت فكرة لريدكا «الديك يكرهني». وصلوا إلى الشارع المغطى بالاسفلت، هو طريق المدرسة. إلى جانب البقالية، كان زجاج موزع الماء الغازية يلمع.

– أعطيني قطعة من ثلاثة كوبيك.

بحثت الوالدة في حقيبتها ونظرت اليه يدخل القطعة في الفتحة المخصصة ومزيج من الغضب والشفقة يتنازع مشاعرها، كان بالفعل خائفاً: سالت الماء قبل أن يضع الكأس تحت الأنبوب.

تابعوا السير والوالدة تتقدم دائماً. وبعد أن ابتعد قليلاً قالت له كأنها تبوح بسر:

– يريدون اتهامك بكل شيء لأنك صغير.

أنصت ريدكا جيداً.

– لكنك لم تكن معهم. لاتعلم شيئاً. كنت تطعمُ كلوبيك. هذا كل شيء. ماعليك سوى الانكار. سوف

يقف بوتيكين إلى جانبك. انه وعدني بذلك دفع ريدكا يد أمه التي كانت على كتفه عند ذكر المفتش وحثَّ الخطوات مبتعداً.

لحقت به أمه وأمسكته قائلة:

- تكلم اذن، لماذا تعارضني، ماذا تريد أيضاً؟

- أريد أن لايندس بوتيكين في البيت أبداً.

- غبي! يريد مساعدتك، انه هو من يرافق والدك الرائع ليروا أي شخص غريب الأطوار- هو!

وصل «الوالد الرائع» إلى قاعة المحكمة داخل «ذيل السرطعون» كما كانوا يدعون عربة المساجين الزرقاء ذات الخطوط الحمراء. كان السجين كوستيريا يتباهى بمظهره المترفع ويبدو كثير الارتياح بل سعيداً لدعوته. لن يخجل ابنه به.

في الطريق، استجوبه بوتيكين بهدوء:

- متى ستتوقف عن الشرب ياسيرج كوستيريا؟

- في السابع عشر من تشرين الثاني.

- لماذا في السابع عشر؟

- لأنه في مثل هذا التاريخ أسلم والدي الروح.
وكعادته، تمتم بوتيكين متنهداً:

- ضلال آخر... علينا تدوينه!.

ابتسم كوستيريا. وعندما كان يبتسم كانت عضلات وجهه تشبه ندبات جروح قديمة. يظهر أنه كان يعتبر بوتيكين غبياً ودوناً. اجتازت عربة المساجين «لاسوب» فوق جسر خشبي ارتج تحت وطأتها.

واصل بوتيكين الحوار بكل ارادة طيبة:

- كنت جوكي، ربحت جوائز، كيف سقطت إلى هذا الحد ياسيرج كوستيريا؟

- اني رجل منته أيها المقدَّم. أجاب سائق العربة بلهجة حيادية. الأمر المهم هو أن أبقى نظيفاً.

قدم له بوتيكين سيجارة.

عندما ألقى بوتيكين القبض على عصابة المدافن. لم يفكر بريدكا لأن اسمه لم يكن في «فيش» زمرة الأحداث

الذي تفحصه في مفرزة الدرك. ولكن عندما كان يزور كعادته شقة البوّابة، أتت اليه ليزا ترجوه باكية بأن لايقلق ولدها. استفاضت في الكلام عن الموضوع، وكذلك دافعت البوّابة راوزا عن عائلة كوستيريا:

-إنهم أناس طيبون بالرغم من ادمان الوالد على الشرب وقضاء بضعة أيام في السجن عقاباً على ممارسات تجارية بسيطة في ميدان الخيل. وريدكا ولد طيب بالرغم من مظهره الذي ينم عن سوء تربيته، يطعم الهررة ويهتم بحصانه. وعد بوتيكين بأن يمر لرؤية الفتى. قام بتجرياته في المدرسة؛ اهمال شامل، لايحصل الا على علامات سيئة، لايمتثل لأوامر أحد ويتغيب عن الدروس. زار أسرة كوستيريا ليس مرة واحدة حسب وعده بل مرات عديدة. كانت المرأة تثير شفقته لتعبها ووحدتها بالرغم من وجود زوج لايزال على قيد الحياة. ولكن ماان تبتسم حتى تنير الغرفة كلها. ذات مرة انحرف عن الطريق العام ومرّ في المقبرة حيث كانت ترش بالماء سياجاً بعد الانتهاء من

عملها. تناقشا مرة أخرى. نصحها بأن لا تقلق؛ سيشهد لصالح ريدكا مكذباً وشايات السيدة بيتروفنا، وباختصار، سوف يدافع عن ولدها. ولكنه فوجئ اذ أوكلوا اليه بالدور السلبي لمرافقة سيرج كوستيريا إلى المحكمة.

عندما وجه بوتيكين اللوم إلى كوستيريا لبيعه الشوفان الخاص بالحكومة لحسابه الخاص، أجاب كوستيريا بفخر:

- يفضل بيع الشوفان على بيع النفس! عوملت كطفيلي، ولأجل كيس سيء من الشوفان، عوقبت خمسة عشر يوماً وخمس عشرة ليلة!

- كان عليك أن تفكر بابنك.

- صحيح! وابتسم كوستيريا:

- لا يختار الأبناء أهلهم.

وصل ريدكا وأمه، هما أيضاً إلى المدينة. اجتازا ممراً طويلاً ضيقاً وصاخباً. في نهايته كان الباب الذي يجتمع خلفه أعضاء محكمة الأحداث. انتظرا هناك، وكانت نساء يدخلن ويخرجن دون توقف وهنَّ يتكلمن بصوت مرتفع. لم يكنَّ يخفضن صوتهن الا عند فتح الباب ليمنعن ريدكا

من سماع أي شيء. كان كل شيء رهيباً: بوتيكين الذي يشق طريقاً، ابتسامة سيرج كوستيريا والعبارات التي همس بها إلى زوجته عند مروره قربها: «موعدنا الأسبوع القادم، تشددي! . . .».

كان يرتدي سروال الفارس القديم ويعتمر قبعة الجوكي كما لو كان في المنزل. لاتزال ساقاه مقوستين وجزمته قذرة. بالمقابل، لم يكن ثملاً. . . رهيب كذلك شكل والدته الخنوع عندما أدركت بوتيكين ودعاها هذا إلى الدخول بكل تكلف. قال ريدكا في نفسه حان الوقت لعودة والده ألم يكن يلاحظ شيئاً؟ وبعد قليل، عندما دخل سيترون إلى القاعة بدوره، فهم ريدكا فجأة لماذا خطرت له فكرة احراق الدراجة: كان يحب ليلكا!

كان ريدكا ينظر إلى جميع الجهات. لم يكن يخشى بابا ياغا بل يخاف وصول كولونيل، وكان الأمل الضئيل في أن يُنسى يتلاشى شيئاً فشيئاً. مسح كفيه الرطبين وأسند عنقه على الجدار البارد وحاول أن يبتسم.

استولى عليه اليأس. تضاعف الصخب حوله. وأحس بنفسه بأنه وحيد تماماً. كانت أصوات النساء ترن في أذنيه، كنَّ يتناقشن كما على مقاعد الباحة:

- الجميع يقول: «انها غلطة الأجداد» يوجهون اللوم للتربية على الطريقة القديمة. منذ ذلك الحين!

- والمسنّون في زمن شبابهم؟ كانوا سعداء! بالرغم من أنّ السيرك الجوّال أو الدببة التي روّضها الغجر كانت تمر مرة واحدة كل عام.

- الدراجات، كانت شيئاً غريباً! احراق دراجة بدافع الملل، لم يكن هذا موجوداً!

- الأحداث اليوم، لهم كل شيء: الراديو، السينما، التليفيزيون... هذا أكثر من اللازم!

- حتى أنه يوجد ميدان خيل، كما لو كنّا بحاجة اليه في روجكوف!

لم يكنَّ يشاهدن ريدكا الذي كان يسعى جهده ليركز على موضوع حديثهنَّ. فتح الباب، أشار إليه بوتيكين بيده:

- هيا ريدكا، حان دورك لترمي بنفسك في الماء!

كان أعضاء اللجنة يجلسون حول طاولة، بينما كان الأهل والنساء والشرطيات بزيهنَّ الرسمي يجلسون على مقاعد قرب الجدار. عندما دفع يوتيكين ريدكا أمامه، التفت الجميع. كان واقفاً أمام الطاولة كل من سيترون، لاغوت، تينيبرو المدعو رسلان الجميل وتيت دي باي: وُضع ريدكا إلى جانبهم دون أن يدرك تماماً ماذا يجري. كان الذين يوجهون الأسئلة يتكلمون بصوت مرتفع ويقاطع بعضهم البعض، والمتهمون يتهامسون، لم يكن ريدكا يسمعهم جيداً ولم تكد بعض العبارات تصل إلى اذنيه: كان أعضاء اللجنة ينهالون على سيترون.

- من أين أتيت بالسكين؟

- اشتريته.

- وتقول إنك لم ترَ دراجة على الاطلاق؟

صمت.

– انظر إلى هذه العصا الطويلة: هل تقطف الجوز؟

– هؤلاء فتيان، فتيان صالحون للجيش– نعم!

أمسك سيترون بمرفق ريدكا الذي لم يتحرك.

– هذا هو روديون كوستيريا؟

بدا لريدكا أن الذي يوبخه كان أعنفهم جميعاً. كانت وجنتاه الورديتان الحليقتان بعناية تلمعان، وكان يزم شفتيه. فقط كانت عيناه تبتسمان دون أن تنبئا بخير، وبانتظار الجواب رفع الرئيس كمه ليرى الساعة. لاحظه ريدكا وفكر: «أنه على عجلة، هذا الفرد...»

– أي نوع من السجائر تدخن؟

– بريبوي «Priboi»، أجاب ريدكا دون تفكير.

– ماثمن الياكيت؟

– عشرة كوبيك.

– تكفيك طويلاً؟

كانت الأسئلة تتوالى متسلسلة ويجيب ريدكا عليها بالمثل كأنه يلعب.

قاطعته والدته :

- انه يكذب! لاتصدقه! ريدكا، لماذا تكذب؟ لاأحد يدخن في العائلة لا هو ولاوالده.

ارتفع صوت امرأة عذب ولطيف :

- لماذا لاتذهب إلى المدرسة؟

- لاأريد.

- لايخبرني بكل شيء، انه عنيد، قالت أمه.

- لن تتوصل إلى شيء صالح بمثل هذه المعاشرات، أضاف يوتيكين.

- لماذا أنت سيء الطبع ياريدكا؟ رددت آنيا اليسكاندروڤنا Alexandrovna، ارفع صوتك، لانسمعك، تسيءالتصرف مع والدتك.

لم يكن القول صحيحاً. تنفس تنفساً عميقاً وصمت. لماذا كانت تكذب؟ تابع الصوت العذب قائلاً :

- ليخرج الجميع إلى الممر لحظة. بعد خروج العصابة تمتم ريدكا:

- لست سيء الطبع ولاأتصرف تصرفاً سيئاً.

- ماذا يمنعك من التصرف بلياقة؟ ارفع صوتك أكثر وأنت تتكلم. قالت آنيا اليكساندروفنا.

- لاأدري، أتصرف حسناً مع والدتي، إني فظ أحياناً بسبب طبعي، ولكني أساعدها أشتري لها الحاجات، كان يجيب بصدق واضح.

- قل لنا ياولدي. . .

- اسرعوا! اسرعوا! آنياً اليكساندروفنا! قال الرجل ذو الوجنتين اللامعتين وسمع ريدكا قلمه ينقر الطاولة. من أشعل النار في الدراجة؟ أجب.

لم يكن قد أحضر جواباً. لم يراود فكره سوى صورة اشارة تعجب يليها كلب في مكمن.

غابت نصائح أمه عن ذهنه . كذلك كان صامتاً عندما أضاف الصوت العذب «لست مرغماً على الاجابة»، أعلن وعيناه شاخصتان إلى الأرض :

- حسناً . . . أنا!

ضربت الأمُ كفاً على كف . ابتسم والده وقلَّص عضلات فكه : «ياللسعادة!» نهض يوتيكين وقال له مهدداً :

- انك خائف من تلقي طعنة مدية! قد هددوك وتنطق بترَّهات ياغبي! نقر القلم مرة أخرى وتوجهت العينان الخضراوان نحو أمه :

- اقتربي ، تلومك المدرِّسة على عدم مراقبة ولدك . هذا لايزعجك؟

- اخجل . . .

وامتلأت عيناها بالدموع .

- خجل . . . يالها من كلمة نادرة! قال الرجل باللهجة ذاتها وهو ينظر إلى ساعته . لم تكن خائفة أمام

هؤلاء الناس فأمهات غيرها، في الظروف ذاتها، كنَّ يخفن ولايلبين دعوات مثل هذه، أو يتظاهرن بالغباء. غير أن ليزا ايغورڤنا كانت تثق بالذين يقررون مصير ولدها، وتود أن يأتوا إلى منزلها للتأكد من صدقها. ولكن هل كان يمكنها قول كل شيء وذكر ألف من الشؤون الصغيرة التي تشهد بأنه كان غالباً مستسلماً لنفسه؟

– يجب القول أني كنت غالباً مريضة، أجيرت لي عمليتان جراحيتان، واستؤصلت لي المرارة وأثناء اقامتي في المستشفى كان ولدي يبقى وحده. . .

– لنختصر. . .

– لاأفهم ماحدث له. وقد دللّته كثيراً. كان لطيفاً جداً ومداعباً. كان الجميع يلقبونه «غريون «Grillon». ثم تغير. . . استبدل لقبه. انه الآن ريدكا.

– متى حصل ذلك؟ قبل أن يطفح الاناء بسبب نقطة ماء، يجب ملؤه، باختصار، انك لم تسهري عليه بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟

أضافت آنيا اليكساندروڤنا :

- يتأخر دائماً عن المدرسة أو أنه لايأتي إليها . . .

- هذا لأنه يذهب إلى المقبرة ليهتم بكلوبيك .

نظر ريدكا إلى أمه . أنها هي بالفعل من أوكلت اليه بهذه المهمة مكان والده . هل نسيت ذلك؟ كانت تتكلم الآن دون أن تدرك تماماً ماتقول :

- إنه حصان هرم، ولكنه لايملك شيئاً مشتركاً مع الجدْمة[1]- يعتليه ريدكا ليلعب لعبة الفارس واخشى دائماً أن يُقتل . عندما اعاقبه يبكي أو يصمت . كان ريدكا يشعر بأن الجميع يصغون بانتباه، سأل الصوت العذب :

- ان يصمت، مقبول . ولكن أن يبكي . أهذا نفس الشيء؟

لم تجب والدة ريدكا . قدموا لها كأس ماء . تابع الصوت اللطيف وأحس ريدكا بأنه يستطيع التكلم مع هذه السيدة .

١ - جدِمْة : Poney : وصف للخيول الصغيرة القدّ الخفيفة الوزن .

- هل مايقال صحيح؟ اتخذت حصاناً صديقاً لك؟ تسهر عليه طوال الليل؟

- لاأذهب اليه الا في المساء. وماعدا ذلك كله اشاعات.

واستولى عليه فجأة شعور بالظلم وامتلأت عيناه بالدموع. قال لوالده:

- اني أعتني بحصانك ولكنه بحاجة إلى اكليل. جرحه اكليله في غاربه. هل تسمعني بابا؟ هل ستبقى مدة طويلة هنالك؟

- عليك أن تسوقه دون اكليل، أجاب والده وهو يشرح للجنة: منذ أقدم العصور، القاعدة هي أن نترك الجياد واقفة أربعاً وعشرين ساعة دون انقطاع.

ضحك الجميع وارتفع صوت دقات القلم.

- لايطلب اليك أن تحدثنا عن الجياد. حدثنا بالأحرى عن ولدك.

- قيل كل شيء. ومالديَّ شيء اضيفه.

- هل تحبه؟

- لست سوى خادم اصطبل! اعمل لأجل البيوت الزجاجية.

- هاكم إجابة غريبة!

- انه لايسمع تماماً. قالت الأم.

- هل أنت الوالد أم مجرد مستأجر؟ لاتعود إلى بيتك سوى للنوم؟

بقي الأب صامتاً.

- وهذا، ماهذا؟

كان صوت صاحب الوجنتين اللامعتين يشير إلى قبعة الجوكي التي كان كوستيريا يدلكها بين أصابعه.

- كنت اعتمرها في الماضي عندما كنت أعمل في ميدان الخيل. يبدو لي أنك لاتدري عما تستجوبني، عن الجياد أم الأطفال... أُحسِن التعامل مع الجياد ولكن الأطفال...

مدَّ يديه، والأصابع مطوية فوق الراحتين. . .

- هناك طرق ثلاثة للامساك بالذمام: الفرنسية، الألمانية والانكليزية. . .

- ان تصرفك غير لائق وفظ. قاطع رئيس الجلسة. يالكم من أهل سيئين.

تريدون أن تجعلوا من ولدكم خادم اصطبل.

- لاشيء نضيفه، كما قلت. تلفظ الوالد على مهل ويداه تهبطان. . .

- حسناً، سوف نفرض عليك غرامة، ياسيدي الجميل.

- تريدون روبياتي العشرة، لكنكم لاتهتمون بالباقي.

اختتم سيرج كوستيريا كلامه بهدوء وكرامة. سرَّ ريدكا بدفاع والده وقد وجده أفضل من دفاع يوتيكين.

- ياله من لقب، لولدك. «ريدكا». رونشون! (مُدمْدِم) ولماذا لاتلقبه «رادي» (فجل) أو «ناقيه» (لِفْت)!

أضاف الرجل ذو الوجنتين الورديتين مختتماً كلامه. أخذ الحضور بالضحك وقد تعبوا من هذه المواجهة وسرعان ماشمل المرح القاعة بأكملها. أسرع ريدكا ليعتصم خلف الباب الذي أغلقه بظهره. ولكن هذا لم يوقف الهزء والسخرية.

- لنختصر يارفاق. . .

لم ينتظر ريدكا والدته ليعود إلى المنزل. كان يصفر وهو يسير وعلامة تعجب رُسمت على حافة الطريق هنا أيضاً. تردد ريدكا ثم تفاداها ويداه في جيبيه. مادامت هنا، لتبقَ مكانها!







الفصل الرابع

ذات صباح - هبَّت ريحٍ باردة مبشرة بقدوم فصل الشتاء، وتساقط الثلج فجراً فاكتست الطرق والقبور بوشاح أبيض. سار ريدكا على أقصر الطرق لعلمه أن كلوبيك كان ينتظره خلف الأكمات، فكرة تغمره بالسعادة وتجعله يقاوم الرغبة في حث خطواته ليدوم فرحه ماأمكن من الزمن. قد أصبح لريدكا حياة خاصة سرية منذ دخول والده السجن. بعد انصرافه من المدرسة يذهب بمحفظة كتبه لرؤية كلوبيك. يقدم له العلف ويسرجه إلى التيليغة (العربة) ليحمل الرمل والحصى. كان يقوم بهذه الأعمال،

في البدء، مرغماً، تلبية لطلب والدته واصرارها، ولأن الحصان كان هيكلاً عظمياً حقيقياً.

في المقبرة، كان ريدكا يشعر كأنه في منزله. لايهمه أن يتنزه العشاق هناك ويتبادلون القبلات فوق المقاعد البعيدة قليلاً. «انظر، هناك ليلكا بحاجبيها المرسومين بالقلم ورموشها المطلية بالأزرق». مع من تكون هذه المرة؟ ڤاسكا باتونين؟ حسناً! لن يترك بعد الآن دراجته النارية راكنة أمام المدخل! كانت ليلكا تقلب رأسها مستسلمة للقبلات. يراقبها ريدكا ويدفع بشفتيه إلى الأمام وإذا مااصطدم لسوء حظه بأحد الأغصان، كان يجلس القرفصاء لئلا يراه أحد. وهكذا سمع ليلكا تسأل بخدر العاشقة:

- ڤاسيّا، كنت أريد أن أسألك منذ زمن بعيد، قبو الكنيسة Crypte هل هو حفر أم بناء؟

- بناء، أكد ڤاسيًا

بكل تأكيد، كان بناء! القبو التي تشير إليه كان يشبه المستودع المبني بالقرميد. الموجود في طرف فناء الدار عند جدتها. اقترب ريدكا من مقعد آخر حيث كانت تجلس امرأة من بنايتهم. كان أمامها عربة طفل. اختبأ ريدكا ليصغي إلى ثرثرتها الغريبة:

- والآن، سنمسح الف. الفم.. آه. ولكن لانريد. قل لي.

وكانت تتكلم بصوت الطفل والأم على التوالي.

- ثم الأنف- الأنف... لانريد أيضاً... هو وقت الرضاعة، تناول البيبرون للمدلّل... حسناً: سوف نبول عمداً.. أواه... يالها من والدة!

- هذا بالفعل غير جدِّي! استنتج مبتعداً.

كان حفارو قبور جالسين على حافة حفرة مفتوحة. سبق لوالده أن وصفهم له بأنهم طوال اللحى، متعطشون دائماً لشرب الڤودكا. ولم يكن هؤلاء حقيقيين، بل طلاباً من كلية الطب يعملون لنيل منحتهم. وكان أحدهم وهو الذي يعتمر بيري béret ويضع نظارتين، يعرف ريدكا. ناداه:

- ريدكا، تعال واجلس معنا!

جلس على أغصان يغطيها الثلج الموحل.

كان الحفارون يستريحون ويلعبون متراشقين بكتل التراب. لاحظ أنهم كانوا شباباً.

- ألا تلاحظ أنك تتلف الأزهار؟

- أين تريدني أن أجلس، ليس من مكان كافٍ؟

- لن يسوّى هذا الأمر! بعد ثلاثين عاماً سيبلغ عدد الفلاحين على الأرض سبع مليارات، اين سنجد لهم السكن للأحياء والأموات؟

- كان مالتوس على حق اذن ولو كان كاهناً انكليزياً . . .

يالهم من حفاري قبور مذهلين: لايفهم شيئاً من احاديثهم، تغضَّن حاجبا ريدكا. انه يكره الأسرار. وكذلك أن يسخروا منه مثل اختراعهم لمن يدعى مالتوس الآن! قال له صاحب القبعة والنظارتين:

- اذهب إلى المدرسة، سيشرحون لك. يجب أن تتعلم- لايكفي أن تهز الزمام. في الاذاعة، هذا الصباح، شارك أطفال في بث أحد البرامج. هل سمعتهم؟

- في الاذاعة؟ لم يكونوا أطفالاً بل فنانين!

أدرك ريدكا أنه يتوجب عليه أن يخبر طرفة مالتقبله المجموعة.

- يتظاهرون، يدفع لهم لأجل ذلك. بمنجل من فضة تحصد سنابل من ذهب!

ندرس لأن الأمر إلزامي. والا فما نفعه؟ يكفي تناول قرص في المساء وفي صباح الغد، نعرف كل شيء!

ضحك الطلاب من كل قلبهم وهذه المرة ضحكوا معه.

- تكلّم اذن ياريدكا، اخبرنا عن مثولك أمام لجنة التحقيق. ودون الحاح. استرسل في وصف غريب:

- سجنتني والدتي في غرفتي ومنعتني من الخروج ثم غادرت المنزل. وصل ثلاثة من رجال الشرطة على دراجة نارية وأخرجوني من النافذة. وضع يوتيكين الأغلال في يدي. اتجاه واحد إلى المحكمة مباشرة. كان جميع أفراد الزمرة جالسين على مقعد هناك: سيترون، لاغوت، رُسلان، تيت دي ياي، المجعد الصغير الذي كان الجميع يقولون أمامه: «انظرو هذا الشروبيم!» انتقلت البناية بأكملها إلى هناك مما أضاف على عدد الحضور. دعت ليلكا

الجميع بمكالمات هاتفية وكانت الساحرة تصيح على الباب ليسمح لكلبها بالدخول أيضاً. . .

كان الطلاب يصغون اليه بانتباه. كان الصبي ينعم بموهبة فائقة في المغالاة بالاخبار:

- حينئذ خرج يوتيكين.

تسلق ريدكا كومة من التراب.

- طالب بسنتين لسيترون، وسنة مع وقف التنفيذ لرُسلان، ومركز الاصلاح لي. هس! اللجنة تتداول. اعدت الشرطة اسلحتها. . . هس! وقوفاً! «المحكمة!» ساد الصمت في القاعة. اصطكت ركبتاي وقلت في نفسي: «لم تصطك ركبتاي في لحظة اشعال النار هل أخاف الآن؟».

ضغطت على أسناني وعضضت شفتي حتى أدميتها، هل ترون؟ وأظهر لهم شفته، عندها أمسكه صاحب النظارتين بذقنه وحدق بعينيه مباشرة.

إنك تخبرنا أكاذيب ياريدكا، لم تشعل النار في أي مكان.

لم يحاول ريدكا التملص من يديه القذرتين بالوحل. سأل وقد انهار فجأة:

- أتعتقد أنهم يفكرون فعلاً بارسالي إلى مركز الاصلاح؟

لم يجب صاحب النظارتين، تخلَّص ريدكا من يديه. استدار ببطء وتابع طريقه وقد ألقى محفظة كتبه فوق كتفه. لم يكن يعرف قرار اللجنة التي وعدت بمنحه فرصة ليصلح نفسه. أكدت له والدته أنه سيرسل إلى مركز الاصلاحية ولكنَّ راوزا أصرّت على العكس. ومنذ الآن أخذ يتجنب العصابة ويحذرها. أخبرته راوزا بأن هؤلاء سيوقفون لامحالة.

كان بوتيكين يمر على شقتهم بانتظام. وعندما حضر للمرة الأولى كانت والدته في العمل. دار يوتيكين في الغرفة متفحصاً كل غرض: الكليان الصغيران الخزفيان

فوق الرف، الكتاب . . . حتى أنه أعاد المنبه إلى مكانه. وحدها غنائم والده لم تسترع انتباهه بالرغم من أنها الأكثر اثارة للاهتمام. قد يكون الأمر احتراماً لحاجيات سيد المنزل الشخصية. ولكن لماذا يحضر لرؤيتهم في كل وقت؟ هل بصفة وصي؟ قد استغرق ريدكا في أفكاره أثر الحديث المرح مع دفّاني الموتى قد سمعهم يتحدثون عنه وهم يجرفون التراب.

- ليس غبياً، أتعرف؟

- ليس الأطفال أكثر غباء من الراشدين.

كان الوقت متأخراً ولم تزل الفرقة الموسيقية تعزف لحناً جنائزياً على البوق. تلاشت الكنيسة الصغيرة في الظلام. ولم يكن هذا مخيفاً. تحت الايقونة، كان شمعدان غطته خيوط الشمع المصهور. أطبق ريدكا عينيه ثم فتحهما: تحول الشمعدان إلى كلب أبيض يحرك أذنيه. فرح ريدكا لهذا الاكتشاف وخرج من الكابيلا[1]. تذكر أن الناس كانوا يرمون بتقادمهم في الكوة المحفورة في الجدار

١- الكنيسة الصغيرة.

تحت التمثال: قطعاً كبيرة من الخبز. تفاحاً وازهاراً نضرة في وعاء مربى. وخلف قدمي القديس الحافيتين كان يوجد، لاندري السبب. زجاجة قنديل.

عاد ريدكا على أدراجه. وبعد أن ألقى نظرة، تسلق حتى بلغ قاعدة التمثال وملأ جيوبه من التفاح. واو شك أن يستسلم لغواية التهام أكبر تفاحة لكنه غيّر رأيه ووضعها مع الأخريات. خيم الظلام. صهل كلوبيك من بعيد وهو يستشعر قدومه. مسح ريدكا بكمه التفاحة الكبرى وقدمها له. تناولها كلوبيك بهدوء وكشفت شفته الموبرة عن اسنانه الصفراء.

- توقف عن الابتسام!

جسّ ريدكا جرح غاربه الدامي. أمر كان يزعجه حتى وهو في المدرسة ويبعد عنه النوم. كان كلوبيك يصهل مبتسماً ويضرب الأرض بحافره الأمامي ليحصل على تفاحة أخرى. ان الجياد الهرمة ذات الشفة المتدلية والخطم المقلوب والمفاصل المتورمة اختفت من المدن وحتى من

روجكوني. ولاتزال توجد نماذج منها في مراكز الاصطياف أو في الأقفاص القروية.

- انك تمضغ بصعوبة. . . هيًا، امضغ. . .

وأخرج ريدكا قطعة خبز من محفظته، قضمها كلوبيك محدثاً ضجة، حمل ريدكا بعدئذ دلو ماء، ثم حسّ فخذي الحصان الهزيلين وانتهى بتسريح الذيل والعرف.

- والآن، قائمتك اليسرى. . . آه. لكن، قل لي، هذا يعني أنك لاتريد؟

هيّا، إلى اليمنى! . . . آه ولكن! . . . سوف ترفسني؟

كان ريدكا يقلد، بصوت منخفض، الحوار الذي سمعه صدفة بين الأم وطفلها في المقبرة.

- ماذا سيحصل لك لو عرفت أمك هذا. . . وهذا الهدب بحاجة إلى ضربة مقص. . .

آه! ولكن ستعضني! هذا لانه لم يقدم لك الماء ولاالطعام، والدنا العظيم كوستيريا. ها أنك تمضغ العلف

بدل الشوفان أو النخالة. قلي لي، إنه من الأفضل تناول الجزرة أو التفاحة. . .

كان كلوبيك يقضم باجتهاد، محدثاً صوتاً منتظماً يولد في ريدكا شعوراً بالأمان لايصدق.

عاد في الظلام جائعاً وسعيداً وهو يحمل قنديل الغاز. تباطأ في السير، إنه لايرغب في الوصول. وعندما داست قدماه أرض الدهليز، رأى بوتيكين ينتظر أحداً وهو يدخن وانتظر ريدكا قليلاً كذلك، رمى بوتيكين عقب سيجارته واتجه نحو الباب. لحق به ريدكا مستتراً. ولكنه قرَّر أن يبقى خارجاً، وأخذ يراقب نافذة البوابة ابعاداً للملل. كان السنجاب مضطرباً في قفصه والهر يتابع حركاته بانتباه تماماً مثلما يفعل ريدكا من أسفل.

لم يلاحظ ريدكا شيئاً يلوم عليه بوتيكين أثناء زيارته الأولى لهم. كان المفتش أقل مهارة منه في لعب الشطرنج. وعلى عكس ذلك كان يرتب القطع بوقت قصير جداً.

تراهنا على من يكون الأسرع. لم يكن ريدكا يفهم الدافع الذي يحمل بوتيكين على أن يعير الأهمية لهذا الأمر، غير أنه أحرز تقدماً ونجح في ترتيبها بسرعة فائقة. للحال أخذ يحترم بوتيكين ويشعر بالفخر في أن يلعب مع مفتش. بينما كان سكان البناية وفي مقدمتهم سيترون يرتجفون أمامه.

- هل تعرف جميع كلاب الحي؟ سأل ريدكا ملاطفاً.

ملّ بوتيكين أخيراً لطول انتظار والدة ريدكا. كان يبادر بأخذ قبعته عندما عادت من عملها. اضطربت لرؤيته. انتصب ريدكا على حذر مثل كلب يترصد. أخبرت على الفور:

- عقدنا اجتماعاً اليوم لانتخاب مندوبنا. «تورّط» طاهينا embarquer. فهم بوتيكين أنها كانت تعني «emporter» «فاز» وضحك. ابتسم كذلك ريدكا متظاهراً بالفهم ولكن دون أن يعي السبب تماماً. تمنى بكل قواه لو أنهم «ورّطوا» بالفعل هذا الطاهي الشهير.

كان ريدكا يحب والدته ويعرف أنها أفضل الجميع ولكنه لم يخطر على باله حتى هذا الحين، أن يبدي رأيه فيها. لم يكن يميز بين صفاتها ونقائصها. بامكانها أن تكون قاسية ولكنه يعرف أنها تحبه بالرغم من كل شيء وهذا كان يكفيه. . . حتى المساء الذي اكتشف فيه آلام الغيرة عندما تتجاذب الأعين ويتسارع الدم إلى الاذنين.

بينما كانت ليزا ايغوروفنا تسخن الماء للشاي خرج بوتيكين إلى الممر وقرع على باب راوزا ثم عاد مع الحاجبة. كانت صداقتهما قديمة. رشف الثلاثة الشاي معاً بينما كان ريدكا يكتب وظائفه. كان بوتيكين يوحي بانطباع عن قوة الرجل الذي عاش حياته. ثم دار الحديث حول الوالد فقال بوتيكين مراعاة لريدكا.

- انه انسان موهوب ويهتم باسرته.

تنهدت ليزا:

- موهوب، ممكن! . . . ولكن مايتعلق بالاهتمام. . !

شربت راوزا الشاي ولم تنبث بكلمة ثم ذهبت. لم يأتِ بوتيكين بالفودكا ولم يطالب بها فقدرت له ليزا هذه الزيارة النزيهة. سبق أن قدَّم لها مساعدة اذ وصف لها بدقة أعضاء اللجنة. رئيس الجلسة الذي كان ينقر بقلمه على الطاولة كان بالفعل أمين سر اللجنة البلدية وهو انسان جيد.

ولكن مايحدث ببساطة أن الناس يكونون على عجلة من أمرهم. أما الضاحكون في نهاية الجلسة فانهم طيبون؛ حتى أن هذا يعد ايجابياً لأنه لم تفرض غرامة. كان ريدكا يقضم قلمه وينظر من تحته. بعد أن استأذن يوتيكين الوالدة، خلع سترته، وضعها فوق الملف وبقي بصُدرة لا أكمام لها، بدا كتفاه البيضاوان والقويان، فكر ريدكا عندئذ بوالده وساعديه المفتولين اللذين يكسوهما الوبر الأسود والمُسْمَرَّين حتى في فصل الشتاء. ولكن كتفه الأيسر كان ملوياً.

– المهم أن يلسعه الدبور! تمنى ريدكا دون تبكيت ضمير.

استسلم يوتيكين للثرثرة. تحدث عن انحطاط الأخلاق الذي كان يصادفه وأظهر عدم تفهمه لتصرفات فئات متعددة.

- بالأمس أيضاً. احضروا لي فتاة إلى مركز الأحداث. أمضت الليل جالسة فوق مقعد خشبي. كانت ذاهبة من خَبَرَ وڤسك Khabarovsk إلى موسكو، وجدها روجكوف على طريقه، لم يكن معها بطاقة في القطار. كانت تريد فقط رؤية روسيا، وهاهي تجلس بغباوة أمامي تحمل دمية تحت ذراعها. أسألك قليلاً ياليزا ايغوررروڤنا، كما لو كان لها من العمر خمس سنوات... دون التحدث عن الذين أحرقوا الدراجة النارية... نفض ريدكا مافاض من الحبر فوق ريشة قلمه وقد شرَّع اذنيه مصغياً... عمل عفوي! الأكبر سناً يدعى ڤوستور غوف الملقب سيترون. اراقبه منذ ثلاثة أعوام. فرغ صبري تجاهه. عاد بعد غياب. لم ينظم أوراقه والعمل برأيه للأغبياء. تعلم أن يكون مختلفاً عن جميع الناس ويريد أن يلعب دور زعيم. لماذا

اذن ياليـزا؟ . . . ياله من مـراء مـذهل هذا المدعـو بوتيكين نعم، بالاضافة إلى هذا، كان يعرض على والدته الذهاب إلى السينما!

– مع شرطي؟ يالها من فكرة! اجابت ضاحكة.

– مالعمل؟ لاأستطيع شيئاً!

– لو كان لك على الأقل طقم مدني!

– وأين أوصي عليـه؟ إن مـشـغلنا لايخـيط سـوى الألبسة الموحدة.

– ليست البذلات الجاهزة قليلة في المدينة.

أتى المرة التالية بلباس مدني، بذلة مستعملة. وعندما وضع راحـتـيـه على الطاولة، ظهـرت آثار الكيٍّ على الكتـفين. تصـفح الجـريدة، كـان يُعـرض فـيلم ايطالي. رفـضت الوالدة. انهـا لاتحب الأفـلام الايطاليـة، ثم ان السينما تسبب لها كآبة في النفس.

هذا المساء، بدا ريدكا ثقيل الظل.

- اعطيني دراهم، أريد الذهاب إلى السينما.

استسلمت في اا هاية.

- حسناً، اذهب!

كانت غمامة تشبه مستنقع ماء واسعاً تهدد، وشمس شتاء مملل تضيء قليلاً أشجار السَّنْدَر العارية. اضيئت الأنوار قبل حلول المساء. اضيء كل شيء بدفعة واحدة: طبقات الجليد وألواح الزجاج على النوافذ. حل المساء. في موقف الباص، تأمل ريدكا ملياً امرأة جميلة وأنيقة. ابتسمت له، ادار ظهره. وصلت الحافلة ولكنه لم يصعد اليها.

عاد الوالد في لحظة لاينتظرون عودته. كانت الوالدة في العمل. وهذا المساء بالذات، كان ريدكا يتأمل الفتيات الصغيرات اللواتي يبعن ازهار الدهليَّة (الأخاليا). لم يكن يعي سبب اجتذابهن له. ومثل صياد كامن بحث عن اتجاه الريح. كانت الفتيات يرسمن بالحوارة فوق الاسفلت أمام الكنيسة في المكان الذي كانت عربات الموتى تفرغ فيه حمولتها.

كنَّ يزدرين به. قفز فهَربْنَ مخلفات كتابة باحرف بارزة: «رونشون، ان نظراتك مريبة! نراقبك!...» عدا في أثرهنَّ فرَمَتْه احداهن بعبارات جارحة:

- عاد والدك... ويسكر!

نادت ليلكا من النافذة:

- يبحث عنك والدك. يسأل عن مفاتيح الشقة، مع من تكون؟

زال فرحه كله، شقَّ طريقاً بين الرجال الواقفين أمام موزع المشروبات كان والده يتباهى أمام غلاشا التي كانت تنتصب أمام مكتبها مكتوفة اليدين فوق قميصها الأبيض وتنتظر حتى ينتهي من افراغ كأسه. كان والده يبدو مرتاحاً ويتحدث بطلاقة، وبذراعه المعاقة شدّ ولده اليه شارد الذهن.

اطلقوا سراحك؟ لاتستطيع الانتظار حتى تصبح في المنزل وتشرب؟ أخذ أحدهم بالضحك وصفع الوالد محرضاً:

- اطلقوا سراحك؟ كرر ريدكا.

اغتاظ الوالد قائلاً:

- ماذا تريد أيضاً؟ سأحبسك أنا وتدفأ في غرفتك.

تناول المفتاح من يديه واستدار، تبعه ريدكا بدوره.

كانت كمية كبيرة من الكراتين تتكدس قرب مدخل مطعم المعمل. كانوا يحرقون أوراق التوضيب التالفة. وقف ريدكا قرب النار ينتظر والدته. فهم لتوه وللمرة الأولى أنه لايجب أن يأمل شيئاً من والده: لو أنه على الأقل، سأله عما يحدث، ماسبب جميع هذه العلامات السيئة، أو النزهة فوق افريز الدور الأول على مرأى من الصف كله...

سبق لآنيا اليكساندروفنا أن قالت بأنه كان تلميذاً سيئاً وذات سلوك سيء أيضاً؛ هذا لأنه كان يريد الانتقام من نتائجه السيئة وهذا يفسر سبب صعوده على الافريز.

خرجت امرأتان بسترة قذرة تحملان قدراً ثقيلاً.
تعَرَّف إلى والدته ولكنها لم تلاحظ وجوده بسبب الدخان.

- انظري إلى ولدك. قالت المرأة الأخرى.

ازاحت والدته ضفيرة شعر من فوق جبينها واشارت إليه.

- انه هو حقاً.

- لك صبي لطيف!

- انه لطيف أثناء نومه، لاأحبه الا في هذا الوقت.

- الواقع، انك لاتشاهدينه الا عندما ينام!

كانت المرأة أكبر سناً من والدته، عندما اقترب ريدكا منهما، ظهر ايفريميتش على العتبة، انه رئيس الطهاة، هو الذي «ورَّطه» وكان ينشف يديه بمسحة. كان يعتمر قبعة بيضاء، وكأن وجنتيه الرخوتين الهابطتين وأنفه الذي يشبه حبة بطاطا مع أثر جرح في طرفه تؤلف وجهاً صنع خصيصاً لها، لم يكن أحد يحب ايفريميتش وكان ريدكا يثيره.

- لم تنتهِ من التحديق بي؟

- هذا يزعجك؟

- لاشيء للرؤية. هيا، انصرف، أيها الوقح الصغير. الأجدر بك أن تخاف!

- وممن؟ دعني ألمس جبينك لأتحسس ظهور القرنين!

قهقه ايفريميتش ضحكاً وهزَّت والدته رأسه:

- آه! الأطفال...

عادا إلى المنزل متلاصقين أحدهما بالآخر... بدت لهما الطريق جميلة؛ كانت الحقول مغطاة بالثلجة الأولى والنهر الفضي ينساب ملتوياً كأنه يريد أن يطيل مسيرته المتعرجة بحلقات طويلة مغناجة، يحيط بها شجر الصفصاف، والعصافير كانت تصفق باجنحتها وهي تمر فوق رأسيهما. على الضفة الأخرى، كانت أنوار عيد شعبي تتلألأ وجسر خشبي صغير يقود اليه. كانت أقفاص الدولاب الكبير تُرى من بعيد وتصل أصوات الموسيقى إلى الأسماع... تابع ريدكا بنظره طيران الغربان:

- ألا تجدنا الطيور بطيئين جداً ياأمي؟

لم تفهم لتوه ثم أخذت بالضحك.

- ماذا تنوي اختراعه؟ حقاً، أني لاأراك الا نائماً.

لم يقل حتى الآن شيئاً عن والده، كان يتقم من لقائهما الفاشل.

عرض عليها: - هل نذهب إلى العيد؟ لاعمل لنا في المنزل.

- لانملك شيئاً نبيعه. ولا عمل لنا هنالك!

جلست على أرومة شجرة وجذبته اليها. ساوى لها وشاحها وتوردَّت وجنتاها كما لو كان رجلاً.

تركته يعيد تزرير ياقة كنزتها ثم أمسك بيدها وبقيا برهة يؤرجحان ذراعيهما. ابعدته عنها مداعبة.

- هذا جميل! أليس كذلك ماما؟ قال هذا وهو يرغمها على أن تنظر إلى الأفق وتتأمل شبح الأشجار الأسود وألعاب الملاهي المزينة بالأنوار.

هل سبق لك أن صعدت على دولاب الشيطان؟

- كيف لا ياعزيزي؟

- هل أصبت بدوار؟ هيا، لنذهب إلى هناك، نشعر بالملل هنا.

شدَّها من يدها وبما أنها استمرت تقاوم أخبرها كما لو كان ذلك الحجة الدامغة .

-لماذا العودة؟ قد عاد إلى المنزل.

صاحت الوالدة: - ولم تقل شيئاً؟ كيف سيدخل؟ المفتاح معنا.

- لاتقلقي؛ أعطيته اياه ولاحاجة له به. يهتم بنفسه عند غلاشا، هيا تعالي!

- يهتم بنفسه؟

ومرة ثانية لم تفهم مايريد قوله. اغرورقت عيناها بالدموع دون أن تفارق الابتسامة ثغرها. كانت ليزا تعيش في اللحظة الراهنة وفي نظرها كان كل فرح مقدمة لبشرى سعيدة.

أخذا يسيران بخطى سريعة بموازاة السكة الحديدية وخطوطها اللامعة: كانت الاشارات خضراء.

- سأخبرك قصة، قالت الوالدة وهي تبحث عن نظر ابنها.

- قصة؟

- نعم، ولكنها قصة حقيقية وليست رواية.

مرّ قطار محدثاً ضوضاء صاخبة. أخبرت الوالدة قصة فيل ڤيتنام وضحكت.

اختفى القطار أخيراً ولكن ريدكا لم يسمع شيئاً.

- أتستوعب الأمر، فيل نال ميدالية! كان جميع رجال المقاومة يعرفونه في الغابة؛ انه مشهور في جميع أنحاء ڤيتنام: نال ميدالية مكافأة لعمله وأخرى لخوضه الحرب. أخبرني القصة انيسيم يتروفيتش (يوتيكين) في ذلك اليوم.

- اذن؟ يبقى الفيل فيلاً. توقف ريدكا فجأة.

- على يوتيكين أن لايأتي أبداً ماما!

شعرت فجأة بأنها منهكة القوى وقد عوقبت على مزحها. لماذا كان يفكر بالشر؟

- يريد بوتيكين مساعدتي على تربيتك وأنت لاتساعد أحداً.

قال ريدكا مقطب الوجه: - لاأحب المساعدة.

- الا تحب أن يساعدوك؟

- هذا يتعلّق بالذين يساعدونني، يجب أن يعجبهم الأمر: يقومون به لأجل أنفسهم وليس لأجلي.

سألت الأم مستسلمة: - هذا ماتفكر به بالحقيقة؟

- أجل.

لم تعرف ماتقول: - انك تنهكني... أنت صليبي.

ولكنهما نسيا كل شيء عندما أقلع الدولاب الكبير على لحن الارغن الصغير. وعندما ارتفع قفصهما مهتزاً فوق الأشجار والأفق والنهر الفضي. التصقت به وأخذ يدها بين راحتيه.

– ماما، يالها من حياة بؤس! هتف وهو يطلق صفيره الخاص بلحظات السعادة.

كانت غلاشا تقفل باب دكانها بمخزقين ضخمين متقاطعين. غادر المتأخرون من زبائنها إلى منازلهم. كانت الحاجبة تنظف المدخل من الثلج وهي تصغي إلى بوتيكين يقول بصوت منخفض:

– سيبعد هؤلاء الثلاثة من هنا على رأس السنة اذا نجحت بالحصول لهم على بطاقة للمغادرة. ليحضروا اذن حقيبتهم!

– هل صحيح أنهم سطوا على غرفة الهاتف؟

استفهمت رَوْزا بالفاظ تصدر من حنجرتها على نحو لاتميز معها اذا كانت تتكلم الروسية أو التارية.

– وجدت قطع نقود صغيرة بقيمة ثلاث روبلات مع سيترون. نبني الاشتراكية ونسبح في الفضاء، بينما هؤلاء البليدون... يضاف شذوذ آخر... للتدوين.

كان بوتيكين رجلاً تاماً. عجن بالشرف والعقل السليم. من الممكن أن لايعلن أبداً أن البناية التي يسكنها

تعج باللصوص وسيئي التربية. وكان يعرف كثيرين من الأحداث دون مشاكل ويتودد إلى أهلهم. ومن جهة ثانية، كان يجمع البعض منهم ليساعدوه في قسم الأحداث في الشرطة. ولكن في هذه اللحظة هاجمته أفكار حزينة بسبب قربه من المقابر، دون شك. وكانت الفتيات أنفسهن تحت تأثير المقابر وهن ينتزعن الأزهار من فوق القبور ليحملنها إلى معلماتهن قبيل المذاكرات. فاجأهنَّ أكثر من مرة وهددًهن بلازمته المعهودة:

«شذوذ آخر... للتدوين».

كانت روَزْا تساعده ليعثر على الفتيات ولكنها لاتشاركه في أفكاره المتشائمة. سأل يوتيكين:

- هل عاد كوستيريا؟

.....

- أين هو؟

- ذهب... بحثاً عن لذة...

- وليزا ايغورفنا Egorovna؟

استندت روزا إلى مكنستها وافرغت جعبتها قائلة :

- لماذا تزعج ريدكا؟ انك تقلقه بوجودك الدائم هنا . توقف عن المجيء إلى هنا .

أجاب يوتيكين منزعجاً : الله يصلحه!

- أقبل بأن يخاف ارنب ، ولكن بالنسبة لشخص . .

- ليس الشخص ارنباً أجابت الحاجبة .

أدرك يوتيكين أنه لن يتخلص بالسرعة المطلوبة ، ولكن ليس من عادته أن يبرر أعماله بعد قضاء عشرين عاماً من الخدمة في الشرطة لاعيب فيها .

- على الصبي السيء التربية أن يستنشق رائحة القانون وهو في المهد!

نطق بهذه العبارة كلمة كلمة كما لو كانت من وحي هبط عليه بينما كانت بالفعل كلمات عزيزة على مفوض الشرطة في المقاطعة التي ينتمي اليها .

- انك لاتحضر من أجل الفتى بل من أجل الوالدة . هذا أمر سيء . هل اخترت منزلاً هنا؟ تابعت روزا .

أجـاب بـوتيكين بلـهــجــة ألطف : اني اسـاعــدها .
يتعرض ريدكا للزج في اصلاحية الأحداث . انه ليس سوياً
واعترف بأنه وراء الحريقة . ومن الممكن أنه يسعى للدخول
إلى الاصلاحية .

- تريد أيضاً ارساله إلى هناك؟

- لا تنطقي بالترهات! اني اشفق عليه كما على ليزا
وزوجـهـا . هـو كـذلك ياروزا . شـذوذ يضـاف . . . ورمى
بوتيكين بعقب سيجارته تحت مكنسة روزا التي قذفته بقوة .







الفصل الخامس

في ذلك المساء، لم يُشعل الضوء في شقة كوستيريا . كانت أشعة القمر تنصب على يدي الوالد المبلّلتين وكان يفركهما بحجر الخفان في الوعاء الذي كانت زوجته تغسل فيه المناديل .

قال :

- أتفكرين باننا كنا نغسل ايدينا هناك؟ كنا سعداء لاننا نستطيع النوم!

أجابته بحزن:

- انك مرتبك بسبب الخمر، أجل.

- لاأشرب بمقدار مايقال. قولي اذن. أصبح ريدكا فتى يافعاً! يبدو أنه يحب الحيوانات: كلوبيك في حالة ممتازة!

- أثناء غيابك، ذهبت إلى المدرسة ونصحتني الكساندروفنا أن ألحقه بمدرسة تساعده، انها في المدينة، على بعد نصف ساعة في القطار؛ عدت بعد ان انتظرت طويلاً في المخازن وفكرت باني أنا المحتاجة إلى مساعدة.

- لماذ نتركه في المدرسة؟ هذا لاينفعه شيئاً. التقيت صاحبك ايفريمتش Efremytch مثقلاً بالاحمال يتصرف كأنه رئيس طهاة بمأكولاته الخارجة من المطعم.

اذعنت للأمر وقالت:

- الخير رصاص والشر ريشة، قد انتخبناه ولكنه لايحضر الاجتماعات. لم يكن ريدكا نائماً، كان سريره موجوداً في الزاوية خلف الخزانة.

تابع والده مقهقهاً: - قلت له بأدب: «أتقوى على حمل كل شيء؟».

أجابني: «في أيامنا، كل يعيش لنفسه، أنت من عصر آخر ياجدي. اني مثقل بالأحمال لمصلحتي. وأنت أيها الماكر الكبير، لماذا كنت خلف القضبان؟ بسبب كأس صغير أكثر من اللازم؟» وتحدثينني عن المدرسة؟

كانت الماء تبقبق في الوعاء وريدكا يفكر مفتوح العينين.

في الصباح، ترك رسالة: «ماما، اني في المدرسة لحضور درس الرياضيات». ثم أغلق الباب ووضع المفتاح على الساكف[1].

كانت ليلكا معلقة بالهاتف في مبذلها وقد انتعلت حذاءها دون أن تضع جوارب في قدميها. القت عليه تحية صغيرة وتأكدت من وضع اللفافات على قذالها (عنقها الخلفي). وقف إلى جانبها.

- لو كانوا باعوه بدل احراقه... لم يستفد أحد منه، لاهم ولاغيرهم، يقال إنه عمل مجاني، اني افتقدك. تعالَ. سأخبرك.

---

١ - الساكف: القسم الأعلى من الباب الذي يقابل العتبة.

وضعت يدها على كتف ريدكا وتابعت ثرثرتها:

- صغيرنا رونشون كان يراقب... أنت هنا نيوركا؟ أتكلم مع ڤاسكا باللهجة الجيورجية ميميندا ردزي، ميميندا پوري...

ثم بلهجة متآمرة: اني بانتظارك، أتسمعني؟

كان ريدكا يعلم أن ليلكا تكذب باستمرار. لم يكن أدنى أثر للجيورجية... اعادت السماعة إلى مكانها. اسندت ظهرها إلى الجدار ونظرت إلى ريدكا مندهشة.

- لماذا أنت فرحة إلى هذا الحد؟

- قدم لي بيتوين فروية (عباءة مبطنة بفرو) من الخيوط التركيبية، سنحتفل بالمناسبة هذا المساء!

- انك تكذبين! إن ڤاسكا بمهمة، ستخرجين معي!

عبثت ليلكا بشعره الكث وصاحت روزا وهي متوجهة إلى المطبخ:

- مع فتى ياسافلة؟!

طمأنتها ليلكا: - اني لاأهتم بعربات قيد التدريب!

كانت ليلكا رفيقة لريدكا، وكانت بطيبة خاطر، تخبئ له محفظته عندما لايذهب إلى المدرسة كما في هذا الصباح.

- لاتتكلمين الجيورجية، لماذا تكذبين؟

- لان هذا مدعاة للتسلية فالحقيقة مملة. مثلاً، جميع الناس يحبون بابا نويل وشجرته، بالرغم من أن هذا مجرد خداع!

- هل تريدين سناً من أسنان هتلر؟ تابع ريدكا وهو يخرج من جيبه شيئاً طويلاً يعلوه طبقة صفراء تذكر بالصابون.

انه سن حقيقي انتزعه الليلة السابقة بملقط مسطح من هيكل عظمي لحصان بين الأنقاض.

- احدى أسنان هتلر؟ ماذا يعني؟

نظرت ليلكا إلى السن كما لو كان خاتماً أو مشبكاً.

- إني بحاجة إلى المال.

- ماحاجتك إليه؟

- اني بحاجة اليه . هذا يكفي .

- وكم؟

- لاادري، اريد شراء اكليل لكلوبيك .

برقت عيناه عندما اقترحت عليه :

- اذهب إلى بابا - ياغا! سوف تبيعني غطاء الطاولة الذي تزينه طواويس زرقاء وتشتري السن، سترى! ينقصها سن!

يالها من انتهازية! وتسخر فوق ذلك! استعاد سنه وتوجه إلى المطبخ .

كانت ليلكا تقهقه وهي تضرب ساقيها بالحقيبة . سبق أن اشترت بابا ياغا قالب حلوى كهربائياً لم يعجبها . كانت تدلل عليه أمام الجميع . تفحصته روزا بحذر . أية فكرة تحمل الانسان على احتواء كل شيء في المنزل!

- انه خسارة حقيقية . تتكلمين عن الفطاير . تحرق واحدة من اثنتين! كانت تتأسف جدة ڤاسكا .

- اهتمي مباشرة بالثالثة! نصح ريدكا وهو ينسحب.

في الخارج كان فتيان يلعبون بكتل الثلج. أسرع ولم يزل معطفه مفكوك الأزرار ودسّ ثلجاً في عنق أحدهم. بسرعة، وجد نفسه يحيط به الأكبر سناً وهذا ماكان يسعى اليه بالفعل، ليجد مشترياً!

- صدقني أم لا- قال بلهجة حيادية وهو يشد على سنه بين أصابعه الحمراء من البرد- اذا كنت تجهل من كان هتلر، عليك الانصراف من هنا. ودفع أحد الفتيان.

- ارني!

- هتلر. كيف! قل.

- ادولف، هيا، اعطني!

- اين وجدوه! تكلم.

في ريشتاغ، هلك متفحماً. دعني أنظر!.

كان ريدكا يمسك السن.

- انظر اليه في يدي، أقول لك إنه أحد أسنان هتلر!

- على كل حال، قدم البراهين!

- كم يمكن أن نتسلى معك! إني احتاج إلى المال، واذا . . . . وانتقل السن أخيراً من يد الى أخرى دون أن يحيد نظره عنه. كان يثير مشاعرهم بالرغم من قامته الصغيرة.

- انه يكذب!

- انه بدون شك سن. . . ولكن سن غول!

- كم تريد ثمنه؟

- كم تدفع به؟

- قل ثمناً.

- أريد شراء اكليل لحصاني، اذا وجدت لي واحداً، سأهبك اياه دون مقابل.

تفرقت «الشلة» فجأة وأمسك رجل الدور الرابع ريدكا بكتفه. كان ريدكا أطبق قبضة يده على السن. أرغمه كولونيل على الجلوس فوق مقعد إلى جانبه وفتح قبضته، اصبعاً بعد الآخر.

تفحص السن وعرف أنه سن حصان.

- يالك من نصَّاب! تبيع أي شيء!

- لست نصاباً!

- انك نصـاب وقـح! هل سـبق لك أن سـمـعت هذه الكلمة، الخجل؟

اعاد ريدكا السن إلى جيبه. واستفاق من خوفه.

- سبق أن سمعتها... انها حماقة! تقال للحث على العمل الجيد، ولكن الخجل هو عندما نخاف.

- مِمَّ الخوف مثلاً؟

- مما يمكن أن تصـاب به. من عـقـاب، من مـركـز الاصلاح.

- ولاتحب أن تذهب إليه؟

- هذا يتعلق...

فهم أنه من الأفضل التساهل معه...

- ترى ذلك! إنك تتـدبر أمـورك! لنتـابع. أثناء الحرب، رمى بعض الجنود أنفسهم تحت الدبابات مع قنبلة. ماذا نسمي هذا؟

- خوف! لم يكن مكان آخر يلجأون اليه فكان من الأفضل الانتهاء وبأقصى سرعة، لذلك رموا بأنفسهم تحت الدبابات.

فكر ريدكا أنه بامكانه أن يستمر في تمثيل دور المتحدي لاعتقاده بأن بالغاً يجري معه حديثاً تافهاً مثل هذا لم يشاهد حريق الدراجة النارية.

فهو اذن مسالم. تعجب كولونيل!

- يالها من نظرية!

سأل ريدكا فجأة: - لماذا يدعونك «كولونيل»؟ «Colonel».

- اسم أطلق عليّ الناس. اسمي بيتر ميخايلو ڤيتش سابوجنيكوف Peter Mikhailovitch Sapojnikov.

ذات مساء، بينما كنت أدخن قرب النافذة، وكانت ابنتي تهتم بحفيدي في الغرفة المجاورة وصل إلى اذني: «ماما تحضر الحساء» كانت تملي عليه.

سررت بذلك وفكرت «ماما تحضر الحساء، هذا جيد جداً، «ومـاسمك ياابنتي؟ تكلمت بصوت مـرتفع دون انتباه. اجابت: «أتريد شيئاً بابا؟» قلت لها: «اسمك فكتوريا، ماذا يعني ذلك؟ - حسناً، انتصار! وبيتر؟

- صخرة (حجر)! - ورونشون؟ فيما لو كان هذا اسماً؟ «لم تفهم ما عنيته ويصعب بالفعل فهم ذلك، لم أضف شيئاً على كلامي. . . وكان ريدكا يصغي وعيناه شاحضتان إلى السماء. سأل دون أن يتحرك:

- هل رأيتني؟

- أجل. رأيت الدراجة تحترق. اني لاأحب الدراجات النارية، هذا يعود إلى زمن حرب سنة ٤١. كانت تهدر وتحمل الموت في خُرجها. أفضل الجياد. هنا، اني الزعيم الأكبر للجياد. هل تحب كلوبيك؟

- ليس هذا أحد أسنانه بل واحداً من أسنان هتلر.

لم يبتسم سابو جنيكوف وللمرة الأولى نظر اليه ريدكا وجهاً لوجه. كان رأسه ضخماً يشبه رأس فرس مشدوداً إلى الخلف، مزوداً بأنف لحمي ضخم وأسنان

ناتئة، تغضنه تجاعيد متسعة كالأعنَّة. بكل غرابة لم تكن تنبعث منه رائحة التبغ بل رائحة الحصان.

كيف لم يلاحظ هذا قبل الآن؟

سأل ريدكا فجأة:

- لماذا ينفخون في الغليون؟

- ايه! لتحريك الرماد! اجاب سابوجنيكوف وهو يتناول غليونه.

تابع ريدكا: - هل تحب القهوة مع الحليب؟

- جداً.

- والعجة المحضرة بالبطاطا؟

- لا أحب تحضير الطعام، أجاب ساپوجنيكوف مبتسماً.

- وأنا كذلك، ولكنك تحب عندما تسير الأمور على مايرام؟

تذكر ريدكا في تلك اللحظة أنه رأى في أحد الأيام كولونيل عائداً إلى منزله وهو يقرأ الجريدة. وكان يبرز من

مصنف مستنداته طرف بارودة طفل ومرة أخرى- طفا هذا من مخزون ذكرياته الغامضة- رأى كولونيل ينظر من خلال وعاء مليء ماءً وفهم ريدكا فيما بعد أنه كان يحتوي على سمكة. وأيضاً ذات يوم، غادر كولونيل طاولة اللاعبين لانه تعب من لعب الورق، فعلَّق أحد «الرياضيين» لايزال يحتفظ بعاداته العسكرية القديمة. وكانت جميع هذه الصور تحته على المضي قدماً في التعرف إلى هذا الجار. غالباً مانمر قرب أناس طيبين. ياله من غباء بالفعل!

- تعال لزيارتنا، سنعرض أمامك جياداً لم ترَ نظيرها، اقترح كولونيل.

- أين اذن؟

- ألم تأتِ أبداً إلى الاصطبلات؟

- كلا!

- هل تعرف البيوت البلاستيكية؟ يوجد الميدان بعد أشجار الصفصاف المشرفة على الوادي. أبعد منه، نصل إلى حقل التدريب المحاط بسياج من الخشب: هناك ميدان

السباق. هل تعرف هذه العبارة؟ وضع هناك حواجز مختلفة، ولكن أنت ستتوجه إلى ناحية الاصطبلات المبنية بالحجارة، كان هناك مربط خيل الكونت Vrevski ڤريڤسكي الذي لانزال نميز شعاراته على واجهة المدخل. ستسمع بالتأكيد صهيل خيول. سأكون هناك.

أعاد ريدكا رسم الطريق في ذهنه، كان يعرفه فعلاً لانه سبق له أن رافق والده إلى ميدان الخيل، ورأى الطاحونة ذات الجناح الواحد وشعارات الكونت التي يتألف نصفها من الدببة السمراء والحراب الوردية المتداخلة. كان بوسعه أن يصف دون صعوبة طريق الاصطبلات التي كانت تنطلق منها فصيلة الشرطة ولكنه يفضل سماع شرح كولونيل في هذه اللحظة. سأل بعد صمت: - في أي وقت استطيع المجيء؟

- عندما ترغب في ذلك. أجاب محدثه وعكست نظرته شعاعاً حزيناً وفرحاً في آن. لايحتاج الغجري إلى الليل كله ليسرق كبير الجياد: هيا، اعطني هذا السن. أمر دون تمهيد.

لم يعترض ريدكا على الأمر واخرج السن من جيبه. لعب به كولونيل. أطلقه في الهواء مرتين قبل أن يخبئه في أعماق محفظة نقوده.

- هل تعرف أغنية «من يمر اذن في الشارع؟» سأل أيضاً.

- كلا، أُعفيت من الغناء في المدرسة بسبب صوتي الأبح.

كان الثلج يتساقط موزعاً بياضه بالتساوي على المقعد، على كولونيل وعلى باقة معطف ريدكا الصوفية.

يكفي أحياناً أن نجتمع بشخص مرة واحدة حتى تتكرر اللقاءات. ماكاد يمر ثلاثة أيام حتى رأى ريدكا كولونيل في ظروف غريبة. كان الذهاب إلى ميدان السباق يعد رحلة. يجب أن يتخطى الحاجز الذي تتدلى عليه أشجار البيلسان ليأخذ طريق المدافن ثم يجتاز الوادي المحازي للبيوت الزجاجية التي كانت تظهر الواحها الزجاجية كأنها بقايا صحون محطمة. ومن البعيد أيضاً، كان يسمع زفير الريح تحت شمس الشتاء. كانت الفرقة

تعزف ألحاناً فرحة للمناسبة، وينبعث من علبة الصفيح نغم ضعيف اشارة للانطلاق. هنا، كنت تود أن تعدو بسرعة فائقة لئلا تفوتك الدقيقة المقرَّرة حيث تثب الخيول وفرسانها المزينون المنتصبون مثل نصبٍ فوق سروجها وهم يشدون على الأزِمَّة. كان المتبارون يتسابقون عندئذٍ في حلقة الميدان.

في رحلته الأولى إلى ميدان السباق شعر ريدكا بتعب شديد تعددت أسبابه: من احتياطات اتخذها لئلا يراه أبوه إلى المسافة التي قطعها وأخيراً الاثارة التي يحس بها. غير أنه بفعل سحر لم يعد يشعر بالملل.

أعلن مكبر الصوت مقرقعاً عن سباق الفرس أورفيه. فتسابق عندئذ المتراهنون إلى الصناديق. كانوا يعدون دراهمهم كل على حدة وهم يتنافسون في مجموعات صغيرة متناشلين اللوائح من أيدي بعضهم البعض. دفع شرطي سكراناً نحو المخرج فدافع عنه بعضهم وتحولت القضية إلى شجار. في خضم هذا الجمع شعر ريدكا بأن لامكان له، يحس بالتهديد وعليه أن يندس في وسطه معرضاً نفسه لتدوسه الأرجل.

كان الثلج القذر والبطاقات الممزقة تغطي الأرض، ويشاع أنه من الممكن، مع قليل من الحظ أن يعثروا على بطاقة رابحة فقدها أحدهم أو أُخرجت من إحدى الجيوب على عجل. تذكر ريدكا الأمر وكان يجهل ثمن الاكليل مع أنه يظن أنه يساوي أكثر من ثمن خمس فوانيس. يحتاج اذن إلى حط كيير جداً. فوجئ على حين غرةً بوصول العصابة ولم يكن لديه متسع من الوقت ليبتعد عدواً مدَّ له سيترون يده: - مرحباً!

مدَّ ريدكا يده اليمنى بدوره وحيَّاه. لم يتسبب لهم بأدنى أذى في المحكمة. حتى انه تلبَّس الخطأ. ماذا كانوا يريدون أكثر؟ بالرغم من ذلك، اجتهد في أن يتجنبهم ونجح في ذلك والعصابة انقطعت عن اللقاءات مباشرة. مرة واحدة فقط، انتزع لاغوت La Goutte القبَّعة من فوق رأسه وقذفها بقدمه. اكتفى ريدكا بأن التقطها وابتعد دون أن يدير رأسه. والآن كانوا هنالك. وسيترون يتأمل ريدكا، ان الأمر نذير شر! وأخيراً قال:

- ماذا تعمل هنا؟

- لاشيء.

- كـيف، لاشيء، ياروديون رونرون؟ أجب على سؤالي. ماالذي يندمل بوقت أقصر؟ ضربة سكين أم شق ما؟ لاتعرف؟ لم يحصل لك ذلك أبداً؟ اركع، أمر سيترون بصوت منخفض. لم يكن أحد من الجمع يسمعه.

- مع من أتكلم...

تشجع ريدكا مجيباً:

- كلا لن أركع.

ضحك سيترون هازئاً:

- تبدو متكبراً، هيا تيت دوپاي Tête de paille، أظهر له كيف يركع. نفَّذ تيت دي پاي الأمر وكان ذلك يثير الرعب أكثر من السكين الموجود في كم سيترون.

- ابق جانباً، قال سيترون بلطف كأنه يتوجه بكلامه إلى طفل صغير:

ركع ريدكا ببطء متظاهراً بأنه يبحث عن بطاقة على الأرض ولكنه كان يحدق بالأحذية المثقوبة الأطراف والمسننة التقاطيع أمامه.

أصبح سيترون الآن يسيطر على الطفلين واتخذ لهجة أستاذ ليشرح للآخرين ·

- الجسم البشري مجهز بركبتين تنطويان إلى الأمام بعكس الدجاج أو الجراد على سبيل المثال.

بعد انتهاء الدرس استطاع ريدكا أن ينهض. قرع الجرس من جديد وتسارع المراهنون إلى الصناديق. دلَّ روسلان باصبعه على شخص:

- انظر إلى صاحبك.

قهقه لاغوت:

- يرشد الأغبياء إلى الرهانات المزدوجة، اذا ربحت حسب قوله تدفع له نسبة معينة، واذا خسرت يمكنك دائماً أن تعدو وراءه لتجده.

تجمع الجمهور خلف الحواجز. كان في الميدان خمسة أقران، والخيول تعدو مرخية العنان وسرعان مااقترب البعض من الآخر. استراح ريدكا من خوفه ولم يعد يرى شيئاً. لمس أحدهم كتفه، استدار فرأى كولونيل.

- هيّاً لمساعدتنا.

أجاب ريدكا نفياً بحركة من رأسه، أصرّ كولونيل بحركة من يده كررّها ليحمل ريدكا على القبول وانساب في الجمع دون أن يعير انتباهاً للسباق.

- هل تأتي؟

تبع ريدكا كولونيل بعيداً عن الجمع وهو يحدق بقامته المرتفعة، لم يكن يفهم ريبته ربما تكون مزيجاً من رهبة أمام الجمع الغفير ووقع حوافر الخيول والسكين الموجود في كم سيترون. ماذا كان يخبئ له بالفعل كولونيل؟ إلى أين كان يجره؟ كان ريدكا يسير بطيئاً واذناه حمراوان مثل حمرة نار، رأى كولونيل ينحني تحت سياج، يربت على عرف جواد ضخم ويقدم له في راحة يده قطعة من السكر. لم يكن بوسعك أن تتخيل أجمل من هذا الجواد. وضع ريدكا يديه على الحاجز مخلوب اللب. حنى الجواد رأسه مرتين في اتجاهه، اضاءت الشمس فجأة ميدان السباق وذهل ريدكا لرؤية عنقه الحريري وأعطية حوافره الحمراء.

كان كولونيل يتفاوض مع مصور باشر عمله لتوه. بالتأكيد، ان هذا اليوم يوم مجد لهذا الجواد ذي الوبر اللامع. ستكون الصورة رائعة تحت هذه الشمس- مرّ ريدكا من تحت السياج فرأى رجلاً ذا ساقين مقوستين يعتمر قبعة من القش ينزع السرج عن ظهر الحصان. دار حوله مترنحاً. كانت خصلة من الشعر تغطي جبهته وميزاب خشبي يسند عنقه، ويدخن سيجارة لفها بنفسه. أما كولونيل فكان يشد بالزمام ويحجب هكذا حرية الجواد.

نادى ريدكا:

- هيّا، تعال اذن!

أيريد أن يأخذ له صورة مع الحصان؟ هل كان ذلك فخاً؟ أشار كولونيل إلى السرج الموضوع مع سوطه وأمره:

- أمسك بهذا وابقَ إلى جانبه.

لم يبدِ ريدكا حراكاً غير أنه كان يعرف بالتفصيل اجزاء السرج المختلفة. في بيت كوستيريا، كانت عدة الفروسية تامة من أغطية الحوافر حتى الغمامات، تزين الجدران. اكتفى بأن سأل الرجل ذا القبعة القشية:

- ماسمه؟

- سلوغان.

سار الحصان خلف كولونيل منفوش الذيل. كانت مشيته متقلبة تترك اثرين متوازيين من الأمام ومن الخلف.

جمع رجل القبعة، ويبدو أنه خادم في الاصطبل، الحاجات وذهبوا جميعاً.

سأله الرجل:

- من أين خرجت؟

- مامن مكان.

- ماذا تريد؟

- أريد اكليل جواد

- اكليل جواد؟

قهقه الرجل ضاحكاً. صرخ كولونيل دون أن يدير رأسه:

- مالك تخيف هذا الحصان؟

- يبحث الصبي عن اكليل. لن يجده عندنا!

أشـار عندئذٍ كـولـونيل إلى ريدكـا فأسـرع إليه فـوراً.
سأله وهو يتعامل معه بجدية:

- لماذا تبحث عن اكليل؟

تنحنح ريدكا موضحاً:

- ان غارب كلوبيك مجروح

شعر بضيق من صوته الأبح وشعر بأنه ضعيف وبائس.

كان كـولـونيل شديد الذكاء وصافي الذهن، فاستعلم من السائس كما لو كـان يفعل لنفسه، بين اصحاب اختصاص واحد:

- أين تبـاع الأكـاليل؟ يبدو أنهم يجدونها في الربيع في معرض كوزوليزثم وجَّه كلامه إلى ريدكا:

- لنذهب إلى الاصطبلات، ساعد ترفيمتش Trofy-mitch في حمل السرج.

هز ريدكا رأسـه نفياً واستـدار على قدميه وعدا منطلقاً نحو الجمع:

- ياله من متوحش! قال تروفيميتش.

أصبح ريدكا يعلم أين توجد الأكاليل. عاد إلى الميدان وأوشك أن يمر تحت الحوافر تاك- تاك- تاك. ويقع على ظهره. كانت صفارة شرطي تنذره بالخطر- تلقى كلمة وفي خضم الجموع شق طريقه بمرفقيه وكتفيه. كان عليه أن يصل إلى والده مهما كلف الأمر. ربما يكون قد ربح في الرهان. سيعطيه دون شك بعض النقود التي هبطت عليه من السماء.

كان في الحانة. ملتقى أصحاب الحظ، حيث يأكلون ويشربون دون أن يطالبو بما بقى من دراهمهم.

كان سيرج كوستيريا يحمل بيد كأساً متقن الصنع وبالأخرى يمسك بعروة سترة طباخ المطعم. وكان هذا يصغي إليه بسذاجة وهو لايزال تحت تأثير الصدمة التي أصيب بها من جراء ربحه هدفين أثر لعبة بالأرقام الجيدة.

- أيشبه هذا كأساً من الفودكا؟ كان والده يتحدث عن الكأس التي يحملها الطباخ بيده. انه كأس من البوردو!

فيما مضى، كان النبيذ الأحمر يدعى شاتو لافيت Chateau-Laffitte- حسناً!

بالنسبة لزعيم! كما لو كان كأساً من الڤودكا! هل أنت مجرد مساعد طباخ أم رئيس الطهاة؟ لايزال أمامك رتب ترتقيها. . . !

نادى الخادمة:

- اقتربي ياجميلتي! يجب أن يحوي كأس ڤودكا حقيقي خمساً وعشرين سنتيلتر عادة.

احتسى جرعة وقرش قطعة من الخيار المخلل ولاحظ ريدكا عضلات فكيه المشدودة.

- أتذكر يارئيس ماكان ينشد الطلاب؟ «كأسان صغيران متتالين. وقطعة مخلل تساعد على بلعها». برأيك اذن، عن أي كأس صغير يتحدثون؟

عن كأس من البوردو؟ تفهم أن دال. . .

تدخل ريدكا متجهم الوجه وهو يشده بكمه:

- هل ثملت حتى النهاية؟

دون أن يتوقع ذلك، لم يقاوم الوالد بل برَّر موقفه أمام الرئيس:

- انه ابني! لاشيء أقوله، إنه صديقي وأعز رفيق لي!

بحث الرئيس في محفظته المنتفخة واخرج منها بسخاء بطاقات كثيرة كتبت عليها هذه العبارات:

- انك سافل، هيا، اذهب إلى النوم.

عادا سيراً على الطريق المشهور الذي شاهد منذ زمن بعيد روديو غريون يتعلق بيد والده. كان الصيف عندئذٍ يزهو فخوراً بجميع مظاهره. كان عصفور صغير سقط من عشه ووقع في اخدود ملأه التراب: وجد سعادة حقيقية في التقاطه ووضعه في قبضة يد والده المفتوحة وكذلك في نفض غبار الطريق عن قدميه وفي العطاس وسط حقل ذهبي اللون. هذه المرة، سارا بصمت فوق الثلج الذائب والزالق. كان والده يرتدي بنطال الفارس ذاته والقبعة ذاتها، وينتعل الجزمة ذاتها التي تستر ساقيه المقوسين، ولكن كل شيء قد تغير.

أضف إلى ذلك أن ريدكا لم يكن يفكر الا باجتذاب رضى والده ليحصل على الاكليل. مرَّ بقربهما مراهنون عائدون من الميدان وتجاوزوهما. كان الميدان أثراً من عهد القياصرة. كان في ذلك العهد ميداناً شاسعاً مخصصاً لجياد شريف المدينة وبالرغم من أنه لم يكن عندئذ ميداناً للسباق بصفوف المقاعد الثلاثة والحجرة الزجاجية للحكام وحاجز الانطلاق الملون، الا أن قدامى السكان يتذكرون مرابط خيل الكونت ڤريفسكيVrevski المخصصة للجياد الأصيلة في السبق والخبب. كان الهواة فيما مضى يأتون من المنطقة جميعها لأجل المباراة. أما الآن، فإن الشرطة تشغل الاصطبلات بمدرسة للفروسية. عندما تهب الريح في اتجاه المدينة كان يسمع صهيل الخيل وقرع الحوافر فوق الفرشات واصوات الفرسان ورنين الركاب المعدني ودلاء الماء.

تشجع ريدكا:

– بابا، هل تعرف كولونيل؟

– هذا «الرياضي»؟ انه غجري. . . اسأله عن عدد ثقوب حافر حصانه! التحق بالشرطة حيث يعمل كمدرب

فروسية. وهكذا أصبح يقبض معاشين. في منزله، يتناول طعامه على سرج حصان!

- وأنت، لست سوى مدمن خمر! أجاب ريدكا.

كان يكره أن يتبجح والده ويعتقد أنه أفضل من الآخرين. ياله من متعجرف! يكفي أن يقال له: «اصعد على المِقْرَن!» حتى يسقط ويقع على قفاه فوق المقعد! الناس يعرفون بعضهم البعض في المنطقة. وشعر ريدكا بأن المراهنين كانوا يتجنبونهما بسبب أسبوعي سجن والده. خجل عنه.

- المدمنون على الشرب، أترى... كان والده يتابع دون أن يلحظ شيئاً. وتابع دون تمهيد: هل تعرف ياولد كيف كان بطرس الأكبر يعاقبهم؟ كان يسجنهم نعم يضعهم في السجن، مع لافتة من الفولاذ معلقة في عنقهم دُوِّن عليها: «بسبب السكر» أتدري كم كانت تزن هذه اللافتة؟ سبع عشرة ليبرة! (٥٠٠غرام).

تغضن وجه ريدكا ارتياباً لايدري اذا كان والده يكذب أم يقول الحقيقة. كان أكثر اطلاعاً من كثيرين غيره بالرغم من كل شيء.

- كم وزنها بالكيلو؟ سأل الوالد.

- قمت ب عملية حسابية، سبعة كيلو تقريباً، أجاب ريدكا ليفرحه.

فجأة، بدا الوالد حزيناً وتنهد:

- بالرغم من أن روسيا كانت تحتاج إلى فولاذ! انك تجيد الحساب يابنيً.

- وتقول بأني لست بحاجة إلى المدرسة!

- بالطبع يجب أن تذهب اليـهـا! هـل سبق أن قلت عكس ذلك؟

وصلا إلى الحقل حيث كان كلوبيك والعربة.

- اذهب واطعم الحيوان- سأنام ساعة قصيرة، أعلن والده.

كان كلوبيك يغفو واقفاً ولم يتسبب وصولهما بأية ردة فعل. بدا الوالد كأنه في عالم غامض وكان ريدكا يسير إلى جانب رجل مختلف. تصاعدت عندئذٍ إلى وعيه انفعالات النهار كلها: الركوع فوق الثلج القذر والمتجمد،

شروق الشمس المفاجئ، قبعة سيترون الصفراء ومديته المدسوسة في كمه، اللفافات القرمزية حول قوائم الحصان الرشيقة. وأخذ ريدكا يصيح بصوت حاد متردد:

- لامجال للبحث في ارسال كلوبيك إلى المسلخ! لن أسلمك إياه! دعه يعيش أيضاً!

- إن المسلخ لايريده قطعاً! كم عمرك ياولد؟ أجاب والده وهو ينحني صوبه كما كان يفعل عندما كان يلتهب حماسة.

تابع ريدكا دون أن يصغي إليه:

- اشترِ له اكليلاً. سبق أن قلت لك ذلك.

- حسناً موافق، لاتنقصني النقود، انظر. خذ.

نظر الوالد في محفظته السميكة مثل الطاهي في الحانة:

- ولكن أين سنبتاعه؟ هل فكرت بالأمر ياولد؟ أين تباع الأكاليل؟

- في سوق كوزوليتز.

- ولكنها على بعد يوم بالحافلة على طريق زاريسك.
قال الوالد وقد بدا مرتاباً.

- سوف أذهب وحدي، سوف أتدبر أمري.

- موافق. تهانينا!

ونقفه والده على جبينه كما كان يفعل في الماضي.

خبأ ريدكا ماأعطاه اياه والده في محفظته ووضعها في أسفل خزانة الثياب عند راوزا. فكر في البدء بالزاوية خلف خزانته ولكن مصيدة فئران كانت هناك فالمكان اذن قليل الأمان.

دفع والده مبلغاً لابأس به، وأعطى كولونيل العنوان، لم يبقَ سوى الذهاب. أمر كان يخشاه قليلاً، لم يسبق له أن سافر بالحافلة إلى زاريسك. الأمر يختلف تماماً في القطار. آه! لو كانت الجدَّة او بالحري الخال بوريا يستطيع المجيء! هذا ماكان يلزمه!





الفصل السادس

مرت الأيام رتيبة السيء منها يفوق الجيد. كانت المدرسة تقع مقابل ميدان السباق في شارع صاخب يعج بالقطارات وحافلات الشحن. وكان ريدكا يذهب إلى المدرسة مكرهاً. فكل يوم، في الساعة السابعة والنصف عليه أن يجتاز أبواب البناية ويفضل الذهاب برفقة زملائه تخفيفاً للضجر! في أيام الشتاء انقطعوا عن اللهو في الباحة فالمرتفع لم يعد يكفي للتزحلق. باع ڤاسكا بيتوين دراجته

النارية بخسارة كما قيل ولكن كما يبدو بدافع الخوف من العصابة بعد الحريق. شرح والد ريدكا لابنه أنه لايكنُّ له قدر درهمين من التقدير، انقطع الرسَّام عن المجيء. ربما كان مريضاً؟ وفيما لو كان فارق الحياة؟ سيعود إلى هنا في هذه الحالة. وزُِّع صغار هرة فاشكا إلى هنا وهناك ماعدا واحداً وآخر أيضاً دهسته الحافلة فدفنه ريدكا تحت شجرة الصنوبر المفضلة لديه. حفر القبر مع جينكا. أصبحت الأمسيات أكثر ظلاماً اذ انطفأت أنوار العيد ونيرانه في زاريتشي. واستمر عمال الجص في مراودة ليلكا. شاهدهم ريدكا ذات مرة يدفنون قارورة تحت الثلج في مدخل البناية. وبما أن البيرة السيئة لم تكفهم خرجوا لانتشالها من الأرض. تبعتهم ليلكا لترى مايتآمرون به فشرحوا لها ضاحكين: «تركنا زجاجة في الثلاجة!» فهم ريدكا من ضحكهم أنهم يكذبون وأن البخل كان يرشدهم.

أمر كان يقلقه. رأى حلماً. كان لسان نار يتصاعد من الأزفلت والنوافذ تصفق وصفارات رجال الشرطة تدوي وتوالت عليه الكوابيس. كانت النساء الجالسات على المقاعد تخبر أنهم سيقودون أفراد العصابة إلى مكان ما

في الفترة السابقة لرأس السنة: «بوسعهم اذن أن يحضروا حقائبهم استعداداً للر حيل». كان يتظاهر بأن الأمر لايعنيه ولكن موقف سيترون أربكه بعض الشيء. كان يذهب، حسب قوله، إلى الورشة ولكنه كان يتنزه طوال النهار وكان لاغوث يعتزل الناس. هل كانا خائفين؟

يبدو أن لاغوت سُجل في نادي الرقص، هي حيلة بلاشك. كان بوسع ريدكا معرفة المزيد من ليلكا بصفتها ملكة النادي.

أما زيارات بوتيكين فقد أصبحت نادرة: يأتي، يرتب الأشخاص فوق رقعة الشطرنج ويحتسي الشاي دون أن يدعى إلى ذلك. غير أنه أقلع عن خلع سترته بحضور الوالد الذي كان يصفه دائماً بأنه «رياضي» ولا يهتم بزياراته ولا بكلوبيك الذي تناساه على مايبدو كما لو لم يكن من عمل في فصل الشتاء. في الصباح، كان يذهب إلى مصلحة الطرق وينظم برنامج عمله الجديد، لامجال لارتكاب أخطاء.

في الأيام الأولى من شهر كانون الأول، تساقط الثلج غزيراً ودفن المقاعد والقبور وصلبانها.

كان كلوبيك يسهل مهمة ريدكا عندما يسرجه فيمد عنقه ليلبس الاكليل القديم. فيتسلق ريدكا جزع شجرة يابساً ويقبله على شفته العليا بين المنخرين بعد أن يتأكد من أن أحداً لايراه. ويجلس بعدئذ على المقعد الخشبي الذي صقله استعمال العربة. فيهتز الحصان العجوز منفعلاً. وكانت أُطر العجلات الحديدية تلمع تحت أشعة الشمس مخلفة وراءها آثاراً متعرجة.

لم يكن ريدكا يعلم مقدار حبه كلوبيك عندما صرخ في وجه والده: «دعه يعيش أيضاً». عندما لايكون متوجباً عليه نقل مواد للمدافن من رمل وحصى أو قطع رخام، كان يقوده في نزهة إلى البيوت الزجاجية وهو يتأمل عنقه المجروح الذي دهنه بفازلين مُعَطَّر سرقه من أمه. «آه! ياكلوبيك. تسير أمورنا على عكس مانريد». لايوجد ستة وثلاثون حلاً، لابدَّ من شراء الاكليل. كان يعلم أن كوزوليت تبعد أربع ساعات من محطة حافلات النقل قرب السوق.

قرب البيوت الزجاجية، التقى صدفة بسيترون وثلاثة صبية آخرين. قطعوا عليه الطريق وهم يثرثرون فيما بينهم متظاهرين بالبراءة ولكنهم كانوا يقصدونه بالطبع.

- رائحة البنزين تنبعث من هذا، ابتدأ سيترون وهو يخلع خاتماً من اصبعه كاشفاً هكذا عن وشم، سوف يساعدنا ريدكا، سنقترح عليه ويتحمل المسؤولية.

- حقاً، بما أنه طفل، لن يوجهوا اليه أية تهمة! تابع الحديث تيت دي ياي هذا الشيروبيم الذي لم يكن بالفعل أكبر من ريدكا.

- ستتولى تغطيتي والا ستوجه اليَّ التهمة، أضاف سيترون ابتعدوا بعد هذه العبارات وشد ريدكا على الزمام من جديد، لم يكن يريد تغطية سيترون. فكر بكلوبيك. من يريد اقتناء حصان جريح العنق؟ وأحس ريدكا بأنه المسؤول الوحيد عن كلوبيك. في المنزل أخرج الدفتر عن محفظته ولكن بدل أن يكتب وظائفه كتب رسالة إلى جدته (لأمه) المقيمة في كتابيقكا.

«تعالي على رأس السنة، أرجوك. انتظرناك بمناسبة أعياد تشرين الثاني، انتظرت وصولك في الباحة. كنت أفكر أنه من الممكن أن تصلي ذات مساء. سأنتظرك وعندما تصلين إلى هنا سنذهب معاً إلى كوزوليت. هناك سوق

مشهور يقام يوم الأحد وكذلك خلال الأسبوع. سوف تعلمينني الصلاة، لو أردت، نسيت كيف يُصلُّون. قولي للخال بوريا بأن صغار الهرة قد وزعت الا واحد ذو ذيل قصير وآخر دفنته على أنغام الفرقة الجنائزية. يبعث لك كلوبيك قبلة فخمة مثله».

ومرة أخرى، شدَّ فجأة على الزمام لرؤية جياد الشرطة تعدو سريعاً عائدة من مباراة الهوكي. انفصل رئيسهم عن المجموعة وتوجه نحو العربة. ميَّزَ ريدكا كولونيل الذي ألقى عليه التحية فردَّ ريدكا عليها باشارة من يده بعد أن ارتاح إلى «الرياضي». لمس كولونيل عنق كلوبيك ورفع أصابعه إلى أنفه قبل أن يأخذ منديلاً من جيبه وانبعثت رائحة الفازلين منها.

– يجب أن تعتني به. لم تحصل بعد على الاكليل؟

ذكَّره ريدكا:

– يلزم أربع ساعات للذهاب إلى هناك.

– انه يحتاج إلى اكليل يتناسب مع قامته، واكاليلنا متشابهة كلها؛ يالسوء الطالع! انه يتنفس من فمه، قال كولونيل متأسفاً.

شرح ريدكا:

- انه مصاب بالتهاب الجيوب.

- التهاب جيوب؟ آه انظر! كرر كولونيل وقد بدا الاهتمام عليه. هل تعرف الخطوة الاسبانية؟

لم يكن ريدكا يعرفها وكان يتجنب، من ناحية أخرى، الكلام عن شيء يجهله. من الواضح أن كولونيل كان خبيراً بالخيول. في هذه اللحظة مدَّ حصانه الرشيق عنقه نحو كلوبيك وتلامس خطماهما كما لو أنهما يتبادلان قبلة.

- آه يابيدوين، هل يعجبك هذا الشيطان العجوز؟

ضحك ريدكا بكبرياء ولكنه توقف فجأة لأن كولونيل كان يدس منديله تحت سرج كلوبيك ثم لاحظ:

- لم تنظفه، هذا أمر سيء.

وانطلق دون أن يضيف كلمة سوى اشارة من بعيد. وأدارت بيدوين رأسها اللطيف مراراً عديدة نحو كلوبيك كما لو كانت تجد صعوبة لفراق الحصان العجوز المكدون.

بعـد سـاعـة من الزمن، وقـد أنهى رجـال الشـرطة خدمتهم، لحقوا بالعربة إلى خلف اسطبل مضمار الخيل. قفز قائدها إلى الأرض وكان يعتمر شبكاً (قبعة عسكرية بولونية) ويرتدي أنوراك وألقى الزمام فوق مركوبه.

– انظر إلى فتى شارع الغراند سوميي Grand Som-meil! انه يعمل لأجل والده العربيد! هجم مطأطئ الرأس على رجال الشرطة المرحين وقد أصيب في أعماق كبريائه الحدثة فتفرقوا ورافقوه بموكب فيرح حتى أبواب الميدان.

مرّ للمرّة الأولى تحت العقد الخشبي وكانت حزم ضوئية خابية تضيء بالتتابع رؤوس الجياد وسروجها وكانت تتدرب بموجب حركة دائرية ترسم آثارها فوق النشارة كل مرة تمر فوقها. يالها من رائحة ذكية! رفع ريدكا قبعته مندهشاً بالحقيقة، لم يكن للميدان شيء غير عادي. بالأحرى، والحق يقال، كان بحالة رديئة، لم يتقن بناؤه، فقد جيء بمواده من نواحٍ عديدة. وبالرغم من ذلك كانت النشارة تتناثر من تحت الحوافر، والجياد تصهل، والأبواب تخبط عند دخول فرسان جدد، لم يلاحظ ريدكا للوهلة الأولى انهم كانوا أكبر منه سناً بقليل، كان البعض ينتعلون

جـزمـات ويرتدون سـراويل عـسكرية والآخـرون أحـذية رياضـية وقـمـصاناً من قـماش ذي مربعات ملونة أو ينتعلون أحذية أنيقة أو قمصاناً مخططة.

ابتـدأ الدرس باشراف رجل واحـد: كـولونيل. كـان في الوسط تجاه التلاميذ المصطفين رتلاً واحداً وصوته وحده كان يدوي.

- أرغـمـهـا على طاعـتك، نصح أحـدهم، لأجل أن تحضرها للعدْو، عليـهـا أن تكون مـرنة ولينة لتـسـتطيع أن تقودها وتتفاعل بمجرد ضغط من الركبتين.

وقال لآخر:

- تذكـر يايتيروشكا أن الحصان يتفوق بتنفسه وليس بقـوائمه. في السبـاق، ليست المشكلة في الهـجوم والبطن يلامس الأرض. يعـرف أن يقـوم بهـذا مـجـرد أبله. علينا بالأحرى أن نجد الايقاع الذي يتناسب مع قواها.

ترامى شعاع من النور على ابتسامته العريضة. أيكون ملك الميـدان هذا «الرياضي» الـذي كـان يعلب بـالشّدَّة تحت

أرخيبوف شجرة الزيزفون بصحبة ارخيبوف وايفيم؟ يجب أن يراه والده، هذا «الغجري» الذي يصلح فقد لعد ثقوب حافر جواده، ماذا كان يرتدي وهو تحت شجرة الزيزفون؟ لايذكر ريدكا سوى دخان غليونه. هناك، كان يرتدي سترة رمادية وبنطالاً أخضر وجزمة ليِّنة. كان يحمل بيده سوطاً دون أن يهدد أحداً به وكأنه تناساه. ابتعد ريدكا قليلاً، خلفه شبَّ حصان وانتصب على ساقيه الخلفيين. صهلت الجياد الأخرى. جلس القرفصاء من الخوف ولم يشاهده أحد. كان تروفيميتش صاحب القبعة ينادي التلاميذ ويدون اسماءهم في سجل وهو يدير سيجارته بين أسنانه.

- ڤاسيلياالكو! كاريوشكين! جوربا سيميون! جوربا يورا!

اقترب ريدكا وصاح خلف ظهره:

- كوستيريا روديون!

استدار تروفيميتش وقطب حاجبيه، تدخل كولونيل: قد لاحظ اذن وجوده؟

– سجله. قال آمراً.

– . . . روديون؟ كـرر تروفـيـمـيـتش– روديون المتوحش؟

– كوستيريا، صحح ريدكا هامساً.

لم يتوقع حظاً مثل هذا وعدا مذعوراً دون تفكير حتى وصل إلى مقعد خفي عن الأنظار في ركن مظلم. جلس عليه كما على ظهر حصان وأخذ يتأمل الجياد. حاول أن يحفظ اسماءها التي كانت تدري تباعاً بعد أسماء التلاميذ. رانغـون، ڤـاريانت، بون، دوبلي، باس. دون أن ينسى حـصـان الميدان الأصهب الجميل سلوغان الذي استأثر بنظره. لم يعد يوجد في العالم سواه. استمرّ كولونيل في القاء الدرس والتلاميذ يصغون اليه مترنحين فوق سروجهم.

– لو قلت لحصانك: «لن تجتاز هذا الحاجز، انه يفوق قواك» لن يقفز الحصان فوقه، تفهمون، لن يستطيع! اذا قلتم له: «بوسعك عمل هذا، سوف تقفز فوق الحاجز، سنجتازه معاً!» سينجز الحصان العمل، هذا هو الفرق!

يعلم الله وحده كيف ينقل الفارس ثقته إلى حصانه، بيديه، برجليه أو ارادته. ايه كوستيريا!

هل سمع جيداً؟ قد ناداه كولونيل. خرج من خبائه بحذر.

- إلى العمل! أي جواد تريد؟

رفع ريدكا عينيه نحوه: انه جاد في كلامه. أشار ريدكا إلى سلوغان. قهقه تروفيميتش ضاحكاً.

- قد اختار عفريتاً.

- اعطه المقود! أمر كولونيل بعد تردد خفيف.

كان الفرسان يغادرون الميدان، وتفتح الأبواب بعد مرور كل حصان مضيئة داخل الغرفة، وبعد برهة وجيزة لم يبقَ سوى ثلاثة: كولونيل، ريدكا وسلوغان. حذَّر كولونيل ريدكا:

- انه جواد مؤذٍ، يمكنك التدرب معه ولكن انتبه.

وافق ريدكا، شخر سلوغان بقوة وهو يهز رأسه فوق كتفه. وقف كولونيل داخل الدائرة وسلوغان خارجها

وبينهـما ريدكـا . قامـا بالدورة الأولى ثم بالثـانيـة . لم يكن كولـونيل يدري ماالعـمل مع تلميذ بهذه السن . خيَّم الظلام فجأة على حوافر سلوغان الذي انتزع الزمام من يد ريدكا . فاستعاده كولونيل .

– رأيت ، انه يخاف من الظلام . قالها بارتباك كما لو كان هو نفسه قلقاً . قد يكون خائفاً بالفعل؟ لقد جازف بوضع هـذا الحـصـان بين يدي طفل ، فـهم ريدكـا ذلك ولـم يرغب في التظاهر أمـام كـولونيل بانه يافع عـربوناً لمعرفتـه بالجميل . سبق ان انتابه هذا الشعور أمام خاله بوريا لكنه لم يكن يخشى وقتئذٍ حصان الحراثة الذي كان يمتطيه .

يسـيـر الآن كـولونيل إلى الجـانب الآخـر لسلوغـان محجوباً عن ريدكا ويتحدث عن الأمور التي تخيف الجياد .

– لن تجد جوادين متشابهين . جميع الجياد تخاف من أشياء مختلفة . يخاف بعضها من أي شيء فوق رأسها : من ساكفات الأبواب أو الطيور . كان وينبلاين Winplain من هذه الفئة ، سلام على رفاته .

– مات؟ سأل ريدكا .

سقوه ماء بارداً جداً. . . وتابع كولونيل :

- وتخاف اخرى مما يتبعها : من الدجاج والأطفال . أما شيف فقد أوشك على الموت رمياً بالرصاص بسبب احدى مخاوفه الموهومة أثناء نقله بالطائرة إلى بلد آخر . أوشكت الطائرة على الهبوط منحنية إلى الأمام . لايحب سلوغان كل مايتحرك تحت حوافره، ظل، حفرة ماء، أغصان صغيرة . لاحظت هذا جيداً! ولكن أعلم أنه لايحب أن تعاقبه على الخوف . فلو خاف، لاتضربه بل انتظر . كان ريدكا يسير صامتاً دون أن يرى كولونيل .

- وأحياناً تظن أنه خائف بينما يكون يتسلى فقط . انه مثل طفل يقفز فرحاً . تعجبه الحياة ببساطة . عليك بالصبر مع الجياد، لن تحصل على شيء بالقوة . لنضرب مثالاً، غصن شجرة على الطريق، ابتعد، ثم أعده ثانية بهدوء . يلزمك أحياناً عدة أيام . عليه أن يمر بنفسه تلقائياً فوق هذا الغصن اللعين . هيا، اذهب وتعوّد على سلوغان .

توقفا وأخذ ريدكا يدغدغ منخري الحصان الناعمتين وبدا له أنه يفوق الجميع جمالاً . كان مشهوراً بأنه مؤذٍ . من

المؤكد أنه لن يخفض رأسه على غرار كلوبيك ليساعده على ادخال الاكليل! كان لسلوغان مهابة، امبراطور روسي متعجرف. رفع كولونيل الركاب ثم حمل ريدكا بابطيه ووضعه على ظهر الجواد. حركَ ريدكا ساقيه على غير هوادة بحثاً عن الركاب.

– القاعدة الأولى. لاتضغط على الركاب ذكَّره كولونيل وهو يمسك بقدمه وهذا ما جعله يكتشف ثقباً في حذاء ريدكا. ينقصك جزمة.

– هل تدري ماسعر الحذاء؟ حتى ولولم يكن جلداً حقيقياً؟

– انه باهظ الثمن؟

– مبلغ! قالت والدتي إن والدي أرثَّ حذاءً بالرغم من أنه كان سجيناً!

أطلق ريدكا العنان للضحك. ضحك كولونيل كذلك ولكن أقلّ منه. تذكر الهدايا الصغيرة التي كان يرسلها من النمسا في نهاية الحرب إلى ميتم قريب من

فـولوغـدا. كـان يوم الأحـد يذهب مع جنود آخـرين إلى الشـارع الرئيـسي ويتنقلون من مـخزن إلى آخـر لشـراء كل مـاكـان يمكن وجـوده: أكـواريل ألماني، زلاجـات نمسـاوية، بالونات ايطالية، شورتات ومايوهات، صابون في انبوب، مـعـجـون أسنان، كـانوا يوضـبـونهـا داخل طردين أو ثلاثة ويرسلونها مع سيارة عابرة تتجه إلى غراز GRAZ ومن هناك ترسل بالبريد إلى روسيا.

لماذا يذكره هذا الفتى المتشرد بعد الحريق بين الادغال بهـؤلاء الأيتـام؟ إلى درجـة جـعلتـه يبـحث عن رسـائلهم ورسوماتهم التي احتفظ بها في درج مكتبه... لربع قرن خلى، كـتب له هؤلاء الفـتيـة عن رغبـاتهم في أن يصبح الصبيان منهم بحّارة، والفـتيات فنانات أو خياطات... ماذا حل بهم؟

استأنف كولونيل كلامه دون أن يتوصل إلى التخلص من أفكاره.

– الفروسية تتطلب التفكير ياريدكا. شئت أم أبيت. عليك أن تتعلم الرياضيات الجبر وعلم حساب المثلثات

شئت أم أبيت حتى لو لم تحصل الا على المعدل بادئ الأمر، في أي صف أنت؟

- في المرحلة الوسطى.

- حسناً، لايكفي أن تجيد التفكير. سأفضي لك بسر يجب أن تكون ذكياً. الجياد لاتحب الأغبياء. يجب أن تفكر كثيراً. (تحفر سحاياك). ألستَ موافقاً؟

- ....

- ألا تبحث في خبايا دماغك؟

- لاأدري. أعدت صفي. لن أتوصل إلى شيء.

- ولكن بلى. أؤكد لك ذلك. اذا أردنا معاً ستتوصل إلى ماتريد. لايمكنني أن أتخذك تلميذاً الآن بسبب تأخرك. ستحصل على جزمة ولكن لن تحصل على سلوغان، انه جواد قيِّم، أقول لك بصراحة إنه كلَّف ثلاثة آلاف روبل. وإلى أن يحين الوقت، عليك أن تهتم بحصانك كلوبيك وتخلصه من التهاب الجيوب! ستسجل عندنا بصفة خادم اصطبل ولكن دون أن تنسى كلوبيك!

- هل تصـدق بكلامك؟ سـأل ريدكـا وهو يحـدق بعـيني كـولونيل من فـوق صهـوة الجـواد. تحـمل كـولـونيل نظرته وانزله دون أن ينبث بكلمة. فكّ السبور وشدّ ريدكا السرج نحوه مقـتدياً بالتلاميذ الذين سبق له أن شاهدهم يتصرفون.

وحملاه معاً إلي القبان. أصرّ ريدكا على المساعدة في حمله وصعد إلى القبان والسرج على قدميه.

- سبعة وثلاثون كيلو، هذا يعني أحد وثلاثون لك، انه وزن حمَل، عليك أن تسمن، اذا لم تأكل كفاية تصبح هزيلاً. اني لاأحب الهزيليين!

- لست هزيلاً!

- بالطبع لا، ياأخي الصـغـير! لاأحب الشـاحـبي اللون، والحزانى والمشاكسين!

- ولا . . . تابع ريدكـا مسترسلاً في اللعبة بصوت أخن . . .

- المُعْجَبين . .

- صبية صغار؟ تمتم ريدكا بشعور أن هذه اللعبة تروق للاثنين معاً. وتذ كر ريدكا فجأة سؤالاً سبق لكولونيل أن طرحه عليه فسأل:

- ماذا كنت تود معرفته عن الأغنية؟

تعرفت على فتاة صغيرة في أحد المياتم. قضى أهلها جوعاً أثناء حصار لينيغراد. أخبرتني في إحدى رسائلها انهم أحيوا حفلة غناء انشدت فيها: «من يمر اذن في الشارع؟» بحثت تقريباً في كل مكان، في الجيش بعد الحرب، قلَّبت في المجموعات دون أن أعثر على شيء. يعود هذا إلى زمن بعيد. كبرت هذه الفتاة دون شك، احزن أحياناً عندما أفكر بأني لم أرَ أبداً هذه الفتاة الصغيرة ولم أسمع أغنيتها. هيَّا، لو ذهبنا معاً لشراء اكليلك؟

- بطيبة خاطر.

- حسناً، يوم الأحد تواجد في تمام الساعة السابعة أمام أبواب المقبرة. سأكون بانتظارك.

كرَّر ريدكا سؤاله:

- الا تمزح معي؟



الفصل السابع

لم تكن والدته تدري بالأمر . لم يخبرها ريدكا عن شيء لأنهما كانا مزمعين على العودة بسرعة .

من ناحية ثانية استقبل تروفيميتش كولونيل بحقيبة من المؤن . فتناول دون حماس حقيبة القش المجدول المزينة بالديوك الحمراء والصفراء .

– رحلة ملعونة! ستتناولان الغذاء في الطريق! ألحّ تروفيميتش .

- انها وليمة حقيقية! لامه كولونيل وهو ينظر إلى مااحتوت عليه الحقيبة. أعاد تروفيميتش الطمأنينةإلى قلب ريدكا:

- كيف حال جوادك الأصيل؟ هل الوالد بحالة جيدة اليوم؟ سأمرُّ على كل حال.. واذا... لم تكن الحافلة جديدة وفتحت أبوابها ببطء فتسارع الركّاب إلى داخلها مطأطئي الرؤوس. كان الفجر يطفي لوناً أحمر على رسوم الجليد اللاصق على النوافذ. صرخ تروفيميتش: اجلسوا جيداً!

لم تكن الرحلة متعبة، ومرَّت بسلام. كان كولونيل وريدكا يشبهان متآمرين في وسط الجمهور الصغير. كانت الجزمة الجديدة تطقطق تحت أصابع القدمين بلطف محبب، وكولونيل يثرثر مع جاره وهو عاجز خدم معه في نفس الوحدة على مايبدو، ثم غفا على كتف ريدكا.

أطلَّت كوزوليتز KOZELETS من وراء جبل تغطيه أشجار الصنوبر. وبدت المدينة تحت أشعة الشمس كأنها شيدت من قطع الخبز المذهب. وصلا إلى السوق دون مشقة وابتاعا اكليلاً جميلاً من الجلد الأحمر مع محسة قدمت هدية. كانت الدراهم تفيض عن حاجتهما. وضع

كولونيل الاكليل حول كتفه والمحسة في الحقيبة. واشتقا لهما طريقاً في وسط السوق. كان ريدكا يود رؤية كل شيء، دون أن يخجل لكونه صغيراً مع كولونيل حتى ان هذا الشعور لم يكن يزعجه على الاطلاق، ربما فهم ذلك من خلال الحديث الذي جرى مع جليس على الطاولة في كشك البيرة:

- ديوك، وبعدها! لااهتم بهذه التفاصيل. نحن الرجال نتمتع بميزة وهي أننا نبقى أطفالاً حتى مماتنا.

وتلاقت نظراتهما الرفيقة بنظرة ريدكا الذي كان ينتظر على باب المدخل. وتجولا بعدئذٍ بين البسطات المغطاة بالشوادر. كان ريدكا ينادي كولونيل ليدله على شيء حيناً ويتوارى عن أنظاره حيناً آخر. كل شيء كان يثير اعجابه: الدرّاجات، كوم الملاعق الخشبية، زينة رأس السنة الجديدة. أواني الفخار المشوي المليئة بالقشطة الطازجة والجبن الأبيض واللبن. مرّ خلف البائعات البدينات اللواتي تلفهن الشالات ليتأمل كيف كنّ يخرجن النقود المخبأة في ثنايا أثوابهن. وكانت تفصل البسطة عن الأخرى، التنانير والقمصان والمعاطف الواقية من المطر المعلقة، كان يلامسها وهو يتنقل بين الرفوف. كانت

البائعات تسترعي انتباهه أكثر من المشترين. كنّ بشالاتهنّ الفضفاضة ومناديلهنّ الصوفية ومعاطفهنّ الخضراء بياقاتها المحملة بالدبابيس الكبيرة كأنهنّ يحمين أنفسهنّ من الجمهور المتدفق. كان ازدراؤهنّ بالفلاحين ونقودهم يبدو للعيان ولايكدن يتنازلن للتكلم معهم. كانت واحدة تحك خلف اذنها وهي تمضغ شيئاً ما وترد خصلة شعر دهنية إلى الوراء، غير أنها كانت ثاقبة النظر فاكتشف ريدكا انه باستطاعة كل انسان أن يشبه العنكبوت. كانت البائعة تختار الضحايا ممن يقع على متناول يدها كما لو كان الأمر يتعلق بالذباب: «رتيلاء حقيقية» فكّر ريدكا. كانت البائعات تثرن اهتمامه دون أن توقظن ودّه.

كان الوقت متقدماً بعد الظهر عندما رجعا إلى الطريق. وجدا أرومة شجرة ملوية، كنسا الثلج عنها ليجلسا منتظرين الحافلة.

أخرج كولونيل من الحقيبة جبن غنم وقطعة خبز وحلوى محشوة بالكرز أُحضرت في المنزل وقارورتي حليب. عرف ريدكا أن تروفيميتش كان من سرية كولونيل. كان ريدكا يلتهم كل مايقدم له وهو يصغي إلى أخبار الكوزاك الذين عرفهم كولونيل، في الماضي. طال

الانتظار ولم تصل الحافلة فتحولت نزهتهما إلى رحلة طويلة؛ أخبر ريدكا قصتين أو ثلاثة عن خاله بوريا وتحدث عن رشاقة يوتيكين بترتيب القطع على رقعة الشطرنج دون أن يلعب بها، وعن كأس الڤودكا الذي شربه ذات مرة. قدمه له غلاشا قائلاً: «حملوا جثة... أمسك بهم ياصغير...» هذا يعني أنه كان يجب على ريدكا أن يجمع الزبائن لأن موقع الكشك سيء: في أحد أركان الكنيسة وغالباً مايخفى عن أعين المشاركين في الجنازة. كان يحق له اذن أن يحتسي جرعة مكافأة. ولكن ماذا حدث بعدها؟ اختبأ في غابة الحور الصغيرة ليتقيأ. لم يخبر كولونيل بهذا، لايجب أن يعلم كل شيء عنه، وعلينا أن نتجنب التحدث عن انفسنا. كان سابو نجيكوف يصغي وهو يدخن غليونه وينظر إلى البعيد من ناحية أشجار الصنوب والتلال المظلمة والأفق الذي يحجبه الضباب. كان يبتسم فتبرز أسنانه. وكانت التجاعيد العميقة في وجنتيه وجبينه وعنقه المكشوف تذكر بأعنّة الفرس. كان ريدكا يجهل سبب مرافقة كولونيل له إلى كوزوليتز حتى انه لم يطرح السؤال على نفسه، هل يمكن لكولونيل أن يشرحه؟ انه اندفع وراء

مـجـرد دافع عـاطفي. كـان يعـيش في منزله، في الطابق الرابع، مع زوجته وابنته وحفيده. في مكتبه، كانت تتدلى فوق الجدران سيوف وصور فوتوغرافيةللكوزاك الذين يعتمرون قبعات ويرتدون سترات جلدية، وفوق ديوانه، تدلّت بعض السيوط والركاب. وكان سرج وضع على الأرض مثل مقعد مزيناً بالشارات والمسامير النحاسية يثير ضحك سيرج كوستيريا. كان كل شيء ممتعاً للنظر بتنسيقه وكان درج طاولته يخبئ رسائل الأطفال التي كان يحتفظ بها كأغلى ذكرى من ماضيه.

في ربيع عام ١٩٤٥، أُبيدت سرية الفرسان أثناء معارك بحيرة بالاتون BALATON واستقر معسكرهم في مدينة صغيرة مجهولة في جبال الألب النمساوية. كان الملل القاتل يخيم عليها والجميع يأمل بالعودة إلى الوطن روسيا. فتبادل الفرسان الرسائل مع ميتم تألم أطفاله وعانوا الكثير أثناء حصار لينينغراد. منذ أربع سنوات كانوا يعيشون في مكان مجهول أبعد من ڤولوغدا VOLOGDA.

كانت مرحلة حاسمة في حياة سايوجنيكوف. كان يرسل للأطفال رسائل تحمل الأمل من خلال العبارات التي تتوافد إلى فكره. وكان يشعر بالفرح لدى استلامه الأجوبة الملأى بالثقة. بعد مضي شهرين، ولسوء طالعه، كتب رسالة وجهها إلى الجميع مع ذكر جميع الأسماء سجلت ضمن ثلاثة أعمدة- وهناك. في روسيا استياء عام شمل جميع الأطفال. فاضطر إلى أن يبعث برسالة إلى كل على حدة.

في البدء، أرسلت مجموعة من المجندين في السرية، بعض الدراهم التي وفروها من رواتبهم، ولكن سابو جنيكوف فكر أن هؤلاء الأطفال يفضلون الهدايا التي تتناسب وأعمارهم. كان يسر لدى تخيله وصول البريد، عند حلول المساء، إلى معمل الخياطة حيث كانت الفتيات تعمل. لم يعد للكثيرات منهن أحد من أفراد اسرتهن. كنّ ينتظرن الرسائل كما الشحرور الصيف. أبدين رغبة في الحصول على صورة لمراسليهنّ، فاضطر سابوجنيكوف أن يتصور ثلاث مرات. استلم من أصغر الأطفال سناً رسوماً

أو رسائل كتبت بأحرف من حجم أيديهم. سأل أحدهم متى يحق لسايوجنيكوف أن يحصل على اجازة لقد كان هو أيضاً يحلم بذلك ولكن هذا لايكفي لازاحة الجبال.
أنشدت احدى الفتيات في حفلة موسيقية للأطفال: «من يمر اذن في الشارع؟». كانت توقع باسم هيلدا. كان ذلك مدهشاً. كانوا يحتفلون بعيد ميلادها مع كثيرات غيرها في «يوم المرأة» وكانت مقتنعة بأنها ولدت في الثامن من آذار... كان سايوجنيكوف يجد ساعات من الصفاء في الغابة التيرولية القديمة قدم العالم حيث كانت كل شجرة صنوبر تتحمل قدرها على الأرض بابهة وجلال. كانت هيلدا تحدثه عن كل شيء يتعلق بها دون أن تعرفه، عن الحفلة التي أُخذت لها الصورة وهي ترتدي ثياب «التمثيل»، عن رغبتها بالالتحاق بمجموعة أخرى في المعمل لئلا تفوتها عروض الساعة التاسعة عشرة! ياللأسف! ماأفظع الأمر! كانت بحاجة إلى من يشاركها صعوباتها والتقت صدفة بسايوجنيكوف التائه في أعماق غابته البعيدة.

تحدث اليها بدوره، كما مع فتاة بالغة، عن مصائبه الشخصية: زوال عائلته في لينينغراد، وحدته في هذا العالم باستثناء هيلدا بكل تأكيد. كان جوابها يحمل رسوماً عديدة، هر، مهرج، تمثال من الثلج وضعت فيه قطع فحم مكان العينين، مع عبارات غير متوقعة: «اشعر بالأسى والشفقة على حظك. سيبقى كل شيء بيننا سراً، أفهم هذا تماماً». في هذه اللحظة، كان كولونيل يستعيد هذا الشعور بالسعادة من خلال ثقة ريدكا وتبادلهما الأسرار. تابعا الحديث بانتظار الحافلة تحت أشعة شمس الشتاء الغاربة:

سأل ريدكا:

- هل ذهبت لرؤيتها؟

- أنا، كلا، ذهب رئيس سريتنا. أخبرنا كيف استقبله الأطفال في المحطة، انهم هربوا من المدارس. حمل لهم مئة كتاب قصص وحكايا من جميع البلاد. اندرسن، الأخوان غريم . . . ثم اشترى، لن تحذر أبداً، حصاناً لعربتهم (كوخوذ). كانوا يحتاجون اليها لجمع الحطب في الغابة.

- ولكني، أنا أحبه أحب حصاني. قال ريدكا فجأة.

- أنت رجل المستقبل. أكد كولونيل.

- ولماذا؟

- نعيش في عصر الآلة: انقطع الناس منذ طفولتهم عن الحيوانات. ومن جهة ثانية، قد حذفنا الكثير منها لأننا لم نعد نرى نفعها، من الجياد والجمال والحمير.

- الذئاب، الفيلة، والبرغش.

- قد أوشك البيسون (الثور الاميركي) أن ينقرض. وستلحق به قريباً الحيتان والأوز الأسود. إلى أين سيقودنا هذا؟

حملهما هذا الاستنتاج على التفكير.

- ثم ستأتي أزمنة نتوقف فيها عن القضاء عليها ونبعثها من جديد ستعيش الديكة البرية في مزارع التعاونيات، وستقفز الأرانب في الحدائق العامة.

استسلم ريدكا للضحك، أعجبته هذه الفكرة وانطلق في هذيان مشابه:

- ستقطف السناجيب الجوز وسيزور النعام بلادنا سائحاً . . .

- وسوف تنبت أسنان للدجاج، أكد كولونيل دون أن يبدو عليه المزاح .

- والأفاعي . . . ماذا ستفعل؟

- آه! سوف تهز الأسرّة للأطفال! في الهند، الآن . . .

- انك تكذب! صرخ ريدكا مهتاجاً .

قررا عندئذ عدم انتظار الحافلة . كانا يرتجفان برداً فانطلقا سيراً على الأقدام .

لم يكن لفرح ريدكا حدود . وصل إلى هدفه وينعم باللحظة الحاضرة كأنها المكافأة الكبرى . ومن كان يسير، في يوم ذلك الأحد، على طريق زاريسك، التقى بانسان سعيد .

اجتازت بهما سيارة شحن محملة بجزمات مخملية ثم توقفت :

- ذاهب إلى المدينة، اصعدا، لم يبقَ سيارات نقل .

- إلى أين تنقل هذه الجـزمـات؟ سـأل ريدكـا وهو يتسلق العـجلات ليـصعـد إلى متن الشـاحنة بوسـائله دون اللجوء إلى مساعدة كولونيل.

- القالانكي Valanki؟ (جزمات)؟ الا تلاحظ اننا في فصل الشتاء؟ ياحيوان!

تمدد ريدكا فوق الجزمات بعد أن انتعل احداها أثناء السفر. غير أنه كان يشعر بالبرد في جزمته الجديدة، قرب كـولونيل الذي يفـصله الاكليل عنه. وفـجـأة أوحت له الجزمات الجديدة بأغنية:

قالانكي، قالانكي، مهرية، مفتوقة....

عـاود ريدكـا مزاجه الرزين، غير أنه استـعـاد حيويته عندمـا أسـرع الكمـيـون، فـصـرخ بأعلى صـوته في الهـواء البارد:

- يالها من حياة بائسة!

صباح الاثنين، عوقب ريدكا ومُنع من الخروج.

قالت والدته: - لن تذهب إلى المدرسة. سيفتح لك والدك عندما يعود: يعرف مكان المفتاح.

- سوف أنام.

- لابأس، حسابك معه.

أقفلت الباب من الخارج وخبأت المفتاح على حافة باب المدخل. لم يدرِ ما العمل. كل ماكان يتخيله يبعث على الملل. أنصت إلى صوت البحر في محارة سرعان ما أعادها إلى موضعها. شيّد قصراً محصناً من لفافات الشعر ثم هدمه بظاهر كفه رتب القطع فوق رقعة الشطرنج بسرعة فائقة، خلطها ثم أعاد ترتيبها أسرع من قبل. كان يتنقل في الغرفة مغمض العينين مثل أعمى. كان أمامه وقت طويل قبل عودة والدته. حزنت أمه لأنّ آنيا اليكساندروفنا أتت من المدرسة قصد أن تدعوها لمقابلة المدير. لسوء طالعه تضافرت الظروف ضده فقد بحثت عنه والدته في كل مكان في لحظة السوء هذه. كان يتغيب عن المدرسة مراراً كثيرة أثناء عملها دون أن ترى شيئاً وها أن آنيا اليكاسندروفنا تختار يوم أحد لتأكدها من وجودها في المنزل. لم يكن

عنده دروس ينصرف عنها، ولكنه توارى عن الأنظار عندما بحثت عنه أمه بعد انصراف آنيا اليكساندروفنا. ليس بوسعنا أن نحسب حساب كل شيء دائماً.

خبأ ريدكا الاكليل تحت السرير. لم يجرؤ على الاتكال على تفهم والده للأمر بالرغم من أنه وافق على شرائه. لم يشاهده بعد لأنه تأخر في العودة مساء وغادر المنزل باكراً. كان بوسعه أن يشرح للوالدة عن الدراهم: «لماذا تغضبين؟ اني على علم!» ولكن لاينبغي أن يعرف أن كولونيل كان برفقته.

نقر جينكا الباب ونظر من ثقب القفل.

– افتح! لماذا توصد الباب؟

– لست بحاجة إليك.

تفحص ريدكا وجهه في مرآة والدته وللمرة الأولى في حياته تفرس في قسماته (من أمكنةُ التسلل والوقوف خلف ريدكا كان يلمح فتىً عادياً في الثياب الداخلية يميل إلى القباحة. قبح المسجونين والمهملين).

كانت أنغام الفرقة تصل ضعيفة إلى اذنيه. على عكس الحديث الهاتفي نذي تجريه ليلكا، كانت في اجارة مرضية منذ خمسة أيام ولم تتبدل أحاديثها قيد شعرة: . . . . لو باعوها. لربحوا منها شيئاً. بدل ذلك احرقوها . . . يالهم من أغبياء! أليس كذلك ڤاسكا؟ يقول بوتيكين بأن هذا فعل مجاني.

مرَّ ريدكا أمام جميع المرايا، المرآة المستديرة على الطاولة. والمعلقة على الجدار مع الصور المثبتة في الاطار، والصغيرة الموجودة على حافة النافذة التي كان والده يحلق أمامها، سُندت إلى حوض أزرق غامق، فوق صحن، تعطي أحسن صورة بفضل انعكاس الثلج على الأغصان المرتفعة إلى مستوى النافذة. تعب ريدكا من مراقبتها وتقطيب الوجه أمامها. أخرج من درج الطاولة قناعاً من الكرتون صنع لرأس السنة. إنه أنف بشكل ثمرة كرز خُطَّ تحته شاربان حريريان، علقه باذنيه فأصبح قاصفاً صغيراً عاري الذراعين. من وسط الغرفة حيث كان يقف رأى والده يسير ساقيه المقوستين. كان يتجه مباشرة إلى كشك غلاشا. سيطول الانتظار اذن.

كان مدير المدرسة، سيميون ايلَّيتش ، سيداً بديناً لطيفاً بنظارتيه المذهبتين. كان فمه الأحمر يحتفظ بمسحة طفولية، دخلت ليزا ايغوروڤنا إلى مكتبه الذي تزينه النباتات الخضراء لتسأله النصح ولم تكن تشعر أمامه بأي خوف. ومع ذلك، لم تكن تجرؤ على دعوته إلى منزلها. لم يكن لديه متسع من الوقت لزيارة كلٍ من الثمانمائة تلميذ الموجودين في مدرسته، يجب أن نكون واقعيين! ولم يكن ريدكا أسوأهم. عليناان نقول إنها لم تكن تشعر ازاء آنيا اليكساندروڤنا بالاحترام نفسه! كان تأسف على نينا ڤلاديميروڤنا الأكثر لطفاً وبساطة. ماذا! كانت بعض الأمهات تفترض أن ذلك يعود إلى موت ابنتها. كانت ليزا ايغوروڤنا تلتقي بها أحياناً في المقبرة وتحمل لها ازهاراً لتزين قبر ابنتها. لم تكن ليزا تنكر ضرورة الحزم والنظام في المدرسة: غير أن آنيا اليسكاندروڤنا كانت تبالغ في الحرص على شرف صفها ولاتبدي أية خشية من المدير الذي تزدري عطفه. وجميع الأولياء يعرفون أنها لاتسامح أي تهاون في النظام. من ناحية ثانية، أفهمت ليزا علناً أثناء الاجتماع الأخير. أن ريدكا كان يكدس العلامات السيئة ويتنزه على الكورنيش، ويتهرب من الدروس ولايبرز دفتر الوظائف لوالديه. وأوضحت أنه لو لم يكن ريدكا هناك، بكل أسف

نقول هذا، لكان الصف، أعني سائر التلاميذ على أفضل حال. بالأمس، على عكس ذلك، بدت أكثر رحمة ولطفاً. نظرت إلى شعارات الوالد قبل أن تدعوها لمقابلة المدير.

دخلت آنيا المكتب، جلست مكتوفة الذراعين وسألتها بجد:

- قولي لي، أيسعني أن أتوجه إلى كرامتك كأم؟

- ولماذا «كأم»؟ أجابت ايفوروفنا بصوت منخفض، يجب أن تتوفر الكرامة لجميع الناس.

أوضحت آنيا اليكساندروفنا فكرتها:

- دائماً يكون للأطفال المشاكسين أهل مشاكسون. وزوجك الثمل اللامبالي، هذا الرياضي المتفوق يثبت قناعتي بأن الأولاد هم مرآة مكبرة للشر، كما كتب بكل صواب ليون تولستوي.

- للشر وللخير على السواء، صحح سيميون إيلّيتش. ولكن لابد من ممارسة الضغط، ليزا ايفوروفنا، يجب ممارسة الضغط.

- مارست الضغط، بالحزام، باللطف. لم أعد أفهم شيئاً الآن.

- لماذا لم يحضر إلى المدرسة اليوم؟

صممت، كان يمكنها أن تعترف بأنها سجنته عقاباً على هروبه؟

سأل المدير: هل يكتب وظائفه؟

- لايفعل شيئاً. يتدرب للمستقبل، قالت آنيا...

وجه اليها سيميون إيليتش نظرة عتاب.

- ربما اكتشفت موهبة ما لديه؟

- موهبة؟ لو كان عندي منظار، من الممكن أن...

- حسناً. لانتحدث عن المواهب، في هذه السن انها لاتلفت النظر. ربما امكانية ما، اهتمام بشيء، استعداد ما؟

أجابت ليزا ايفوروفنا: - كلا، اسأل آنيا اليكساندروفنا. أوضحت لي الأمر جيداً في اجتماع الأولياء. لايتمتع باية امكانية على الاطلاق. نظر سيميون إلى المعلمة مرة ثانية:

- لجميع الأطفال امكانيات خلقية، ماعدا بعض الشواذات النادرة. قال ذلك وهو يوجه كلامه للأمرأتين معاً. عملية انماء اهتمام بشيء أو جاذبية لشيء ما، ايقاظ الفضولية، أمر يجعل الشخص موهوباً.

تنهدت آنيا اليكساندروفنا: هم!

كانت تعرف هذا أفضل من سيميون إيليتش لأنها درسته في كتب علم التربية ومحاضراتها. غير أن الحياة تبدو أكثر قساوة، مثلاً هنا المغص اللعين الذي كان يعذبها في تلك اللحظة بالذات!

لم تنطق ليزا ايغوروفنا بكلمة أثناء ماتبقى من الحديث وكانت تضع يديها على الطاولة إلى حين رافقها سيميون ايليتش إلى الباب وهو يزودها بالتوصيات الحارة.

سألها حارس المدرسة مشفقاً وهي تسير في الرواق المقفر حيث يتردد الصدى:

- إنه يشـــــرب اذن؟ لابد أنهم لاحظوا ذلك. لايستدعون دون سبب!

- هل كان ريدكا يشرب؟ لم تكن تعلم ذلك! كانت تعلم أن هذه المصيبة حلت بأمهات أخريات كيف المعرفة؟

تابع الحارس الملهم:

- بسبب الشرب، ضربني والدي عدة مراة. كان عليك أن تشاهدي آثار الضرب بعنان الفرس! هكذا كان في الماضي! الآن، تحملك الشبيبة على التقيؤ. يبدو أنه لم يعد لنا الحق في الاصلاح. اذا امسكت الحزام بيدك، يتدخل الجيران والشرطة كذلك... عندئذ عليك أن تتدبر الأمر لتربيتهم! إلى اللقاء ياسيدتي الطيبة. لاتهتمي، هيا!





الفصل الثامن

كان ريدكا يجتاز المقبرة في ظلمة الغسق حاملاً قنديله بيده، متوجهاً إلى كلوبيك ليعتني به قبل أن يصل المدرسة خمس دقائق قبل الجرس.

الأيام قصيرة في شهر كانون الأول، والوقت يمر سريعاً، بعد العودة من المدرسة ودون أن يتناول غداءه، ينضم في الاسطبلات إلى أمثاله من المتدربين الذين كانوا يكتسون الثلج في ميدان السباق ويحملون العلف ويفركون الأخطمة بالصنفرة. استأذن كولونيل ليسرج الحصان الذي كان يحاول ركوبه دون سرج، لم يتمكن من التمسك بالغارب لأن الحصان كان أملس بكامله. ساعده أشخاص

كبار برفعه بساق واحدة.

كل يوم، ومنذ الصباح كان المضمار يميد بالحركة: يحتل فرسان الشرطة المضمار قبل التلاميذ والحداد ايڤان. كلٌ ينصرف إلى عمله. لاضرورة لتكرار العمل مرتين. بل على العكس! كانت الدروس التي يجب عليه حفظها مصدر الخوف الوحيد. اذ كان كولونيل يطالب بدفاتر الوظائف ولايتردد بالاتصال هاتفياً بسيميون ليتحقق منها وبفصله عند أول مخالفة: كان ريدكا يحمل دفتره على مضض، ويعرف أدق التفاصيل في مكتب كولونيل حتى آخر بكرة للخيطان السوداء: الدروع المعلقة على الجدار، الخوذة وصفحة الدعاية المنتزعة من مجلة اوغونيوك Ogoniok! التي تمثل فتاة جميلة على حصان، والصاع الخزفي الأحمر على حافة النافذة، والمشط الكبير المكسور، وبطاقات القطار المستعملة... كان ريدكا يشعر فيه بارتياح ولايود الخروج منه، فيسخر منه تروفيميتش:

– من أحرق الدراجة اذن؟ أنا أعرف أنك أنت! لم تغير قميصك ورائحتك دخان. سأصمت اذا دفعت أجرة الجولة.

كان تروفيميتش يسمي الأشياء على طريقته. وكان ريدكا يحب هذا: فالمنشفة كانت تصبح مثلاً ممسحة أيدي، كان ريدكا يرمي دفتره على طاولة كولونيل ويتخلص من

قبضة ذراعي تروفيميتش القوية ويذهب إلى ميدان السباق.
كان كل يوم يكشف عن مشهد جديد وكل جواد يختلف عن الآخر. كان أحد الجياد يحبط الفرسان، والشرطة وحتى كولونيل ذاته. وبالرغم من ذلك اختارته فتاة من الصف السابع وانطلقت مسرعة. تحمس الجواد المجنون وتموج العرف والذيل في الفضاء. لحق به كولونيل وأمسك بالزمام. وعندمااقتربا كنت ترى في نظر كولونيل والحصان على السواء فرحاً غريباً. وكانت الفتاة تلهث حائرة بين الضحك والبكاء: نصحها كولونيل قائلاً:

- لاينبغي أن تعاقبيه أو تداعبيه. بل دعيه يقوم بجولة. كان جميع التلاميذ يحيطون به ويصغون اليه.

صرخ تروفيميتش من بعيد:

- يمكن اللعب بـ«التخباية» مع الناس. وأبداً مع الحصان لانه لايخاف منك!

أجابت الفتاة:

ولكنه يحبني. أنا! وكانت نبرة صوتها تنم عن الفخر لانها ربحت. وأضافت وهي تنحني إلى جهة كولونيل:

- لايعرف سواي لأنه يحبني! مزّق كم الحدّاد ورماك أرضاً مرتين. أما أنا، فانه يحبني!

كانت صغيرة جداً وذكّرت ريدكا بفتاة البناية التي كانت تجمع أوراق السكاكر. وشعر بالغيرة منها.

ليلة عيد رأس السنة، أتت ليزا بعد عملها مثل سائر الأمهات: كانت تحمل له الطعام من مطعم المعمل وبحثت عنه طويلاً بين الأطفال. كان جارها كولونيل يفحص الحافر الأمامي لأحد الجياد ويرتدي قميصاً ذا مربعات، وسترة عازلة للمطر واسعة ومفكوكة الأزرار، وسروالاً أخضر وجزمة موحلة: فأسرَّ اليها بصوت منخفض لئلا يسمع رجال الشرطةَ والحداد الذين كانوا يحيطون بهما:

- لماذا تأتين؟ يذهب إلى المدرسة، تأكدت من ذلك.

- أخاف أن يُقتل.

- لاينبغي الخوف من الجياد. في طفولتي، أنا كنت أخاف من الجمال.

ابتعدا على حدة وأشعل غليونه.

ثقي به. يحلم بالشمس ولايرى سوى المطر، ينتظر يوم الأحد ولانزال في يوم الثلاثاء... يريدان أن يلعب بكرة القدم ولكنه مصاب بالزكام. يحتاج إلى من يفهمه ولكن الجميع ينفرون منه.

أرشدها كولونيل إلى المكان الذي تجده فيه وأمكنها أخيراً أن تسلمه باليد رقيقة لحم.

- اذا كنت جائعاً ستصاب بدوار وتقع... تلطخت جزمة كولونيل- فكر بتنظيفها! التهم ريدكا رقيقة اللحم واراد أن يشرح سبب هيمنة كولونيل على الجميع. ولماذا

كـان الجـمـيع ينظرون اليه، ولماذا كـان يغسل جزمـتـه بالماء المجلد ويرتاح ممدداً فـوق العلف في الاسطبل أو يقـرأ صحيفته في المكتب. انه مركز اهتمام مستمر ويتألف حوله موكب لمرافقتـه عند مغادرته للميدان. حسناً، سيراهما الآخرون يعودان معاً لأنهما يسكنان البناية ذاتها. كان على الوالدة أن تفـهم جمـيع هذه الأمور! لذلك أخبرها ريدكا بحماس:

– هل تعرفين أنه كان فلاحاً؟ وانه امتطى ظهر الجواد في السادسة من عمره، كان جده يشده إلى السرج، كان سائق جياد في سالسكايا Salskaïa.

– مامعنى سائق جياد؟

– الفـارس الذي يعلو ظهـر الجواد الأوسط من ثلاثة جياد مكدونة لجر المحراث. هذا طبعاً للمحاريث الضخمة.

– هل أخبرك بذلك؟

– أجل، كـان جـده يكل اليه بذر الشعير والشـوفان دون القمح. كان يقود أحياناً خمسة جياد! وحين كان جده يذهب إلى الكنيسة، يغرس بسرعة أوتاداً في الحقل ويعدو ممسكاً سيفاً بيده. طُقْ! كان يقطع رؤوسها!

كان يطلب أن يتخلوا له عن الجياد الحرونة أو الغبية قائلاً: «اتركوه لي سوف أسرجه!» أتعلْمين ياأماه، هناك جياد لاتطيع البالغين، ولكنها تستسلم منقادة لطفل.

صمت برهة ثم تابع:
- هل سبق لك أن رأيت جمالاً؟
- في حديقة الحيوانات.
- ربما أخاف من الجمال.

عاد متأخراً في المساء، وبالرغم من تعبه، اضطر لزيارة كلوبيك. كانت رائحة الخَنَث تنبعث من مداخن البيوت الزجاجية وهذا ماجعل لعابه يسيل. قد يكون ذلك بسبب الجوع؟ قلق من ذلك، ولكنه اطمأن لأن الأمر لم يتكرر. لم يبلغ الجوع به درجة ترميه أرضاً ويكسر عنقه. مرت لحظات هذا اليوم السعيد جميعها في رأسه: دواخ الارهاق، عدو فتاة الصف السابع، تدفق اللعاب المفاجئ وتعرق يديه، ووزن الدلوِ المليء بالماء حتى الشفة. رائحة الحصان. كان سعيداً لتحدثه عن كولونيل مع والدته. أضف إلى هذا كله نجاحه بغسل الحصان الأصهب من العنق حتى الذيل، ثم ازاحة الماء عن خاصرتيه بكلتا يديه جعلت عضلات الحيوان ترتجف تحت جلده: وكان وبره يلمع ببهاء تحت ضوء المريضِ المبهر. ياله من يوم ممتاز!

ولكنَ قلقاً مريراً تملكه عندما عاد إلى باحة البناية الخالية في مثل هذه الساعة كانت شجرات الصنوبر المعلقة بحبال على جميع النوافذ تقريباً تبدو تعيسة لشعورها بأنها اقتلعت من الغابة لتسجن هنا. بين الحين والآخر، كانت

أفكار مضحكة تراود ريدكا ولم يكن يأبه بها عادة. قد ادرك بقوة حدسه أن هذه الأشجار لم تعلق هناك عبثاً فتصبب العرق على جسمه. لاحظ، عند زاوية الكنيسة، في الظلام، سيارة شرطة وإلى جانبها. رجال يدخنون.

لابدّ أن رجال الشرطة ينتظرون أحداً، وكانت عربة السجن متوارية عن الأنظار، ويتمهلون بسحب بعض أنفاس من السجائر، كانت بابا ياغا تقوم بنزهة مع كلبها الجعيد الأبيض على المرتفع الذي يكسوه الثلج، فيتابع ريدكا الاثنين بنظرة من عينيه الجاحظتين. كانا يتواريان في الظل ثم يظهران من جديد في المناطق التي تنيرها أشعة القمر. فاستنتج بأنها كانت تعلم أن رجال الشرطة يبحثون عن أحد أو أكثر وخرجت لتشاهد مايجري.

تقلص وانسحب بهدوء وزال فرح النهار بلحظة واحدة. فإلى من سواه تأتي بابا ياغا للوداع؟ اختبأ وهو يتعرَّق خوفاً. لايدري إلى أين يذهب هرباً من انتظار العقوبة الرهيب. توفرت الحجيج لسجن سيترون وشلّته: ضوضاء ليلية، خطف الخوذات العسكرية، تخريب الغرف الهاتفية والسطو عليها، تهديد ڤاسكا بيتوين دون ذكر ريدكا الذين أرغموه على الركوع. سوف ينالون الجزاء الذي يستحقونه. وعلى رجال الشرطة أن يقتادوه أيضاً خدمة للعدالة. كان ريدكا شريكاً لهم. ولكن هذا لايبرر وضع

البيض جميعة في سلة واحدة! وعلى كل حال، ليس في نفس الوقت: لم يكن ريدكا يتحمل فكرة التواجد معهم في العربة ذاتها.

ماذا كان ينتظر اذن رجال الشرطة وهم يدخنون بهدوء؟

على مقربة من النوافذ الثلاثة المضاءة التي تظلل قاعة مراقبة خدمات المنزل كان الناس يبدون غير مبالين. كان ريدكا يسمع لحن أكورديون وضرب كعاب على الحضيض ولاتوحي له كلها الا بايقاع ملاحقة محتمة.

عدا إلى منزله، فتح الباب بتمهل وميَّز كبيَّة Képi فوق طاولة صغيرة. كان سريره يوجد في المدخل، في زواية الخزانة. انسلَّ تحت الشرشف دون احداث حركة والتف على نفسه مختبئاً به. شخصان يجلسان: بوتيكين وأمه. كانت تتحدث عن أمور عادية، عن زوجها، عن عملها، عن كلوبيك الذي كان مسجلاً في جدول البيوت البلاستيكية...

- بكل تأكيد، وافق بوتيكين. هذا محسوب بأيام حصان أو ساعات حصان: ان أجرتها أقل ولكن لو ضُربت كم يكون الحاصل في السنة؟

أجابت الوالدة: إنّ القيام بعملية حسابية لأسْهل من تربية طفل ما.

- أسهل؟ ولكن لماذا انجبته؟ ياليزا ايغوروفنا؟ انه ضلال بضلال . . . تعجب بلطف .

- كان بودي أن يكون له خمسة أكثر! تنهدت . لايوجد شيء أجمل على وجه الأرض ليس لي عون أو راحة في العائلة، وعندما لايوجد أحد إلى جانبك ليبوح لك بعبارة لطيفة . . . ثروتي تكمن هنا. كم كان لطيفاً، ولدي غريون، ان الرائدة الفضائية ڤاليا تيريشكوڤا وملكة انكلترا وأنا، جميعنا متشابهات، نحن الثلاثة أمهات . . . ان ياقتك كالحة اللون، أنيسين پتروڤيتش. لاأحد يغسلها لك؟ ضابط مثلك . . . نظر ريدكا من سريره، كانت والدته ترتدي الملابس العادية بكل تحفظ ولكنها كانت فرحة على نحو غريب. هل كانت تظن بأنها تخلصه بهذه الأحاديث؟ ماكان يخيفه هو أن يوتيكين، في هذه الساعة المريعة، كان يجلس وياقته مفتوحة، مهذباً ومهتماً، بينما كانت والدته تبحث في ادراج الخزانة عن قطعة قماش أبيض .

- سأخيط كل ياقة نظيفة، لايزال عندي قماش قطني من ملاءة الوسادات، ضحكا بهدوء، كما لو كان المهم حصل وقررا أن يكتفيا بالتفاهات والضحك .

- الآن، جميع ازراري في أماكنها، وأعيدت خياطة عروتي، ينقصني فقط معرفة وضع النشاء، سأعود لأخذ درس لو سمحت، اقترح يوتيكين مستمراً في ضحكه . قاطعته الوالدة فجأة بجدية مدهشة :

- لاينبغي أن تعود إلى هنا أبداً. سيثرثر الناس.
- حسناً، أجاب بوتيكين بحزن، بعد برهة صمت.
خرج ريدكا إلى الممر، كان يشعر بأن لامكان له. أحس فجأة بأنه تخلص من خوفه، مثل ماشعر ذات مرة عند روزا وهو يفرك جسمه بالكف والصابون. كانت روزا في منزلها وريدكا يثق بها ولايخشاها، بل يأسف فقط لكونها تثرثر قليلاً، أدخلته دون أن تنبث بكلمة وكان السنجاب يدور في قفصه والهر لايزال نحيلاً رغم نموه. تمدد على السرير النظيف فأخذه ريدكا بين ذراعيه.

قالت الحارسة: - انه ينام، من الأفضل لك أن تذهب إلى قاعة الاجتماع، فقد زينوا شجرة الصنوبر.

- اني أفضل كوتسيك.
- كيف؟ ماذا تقول؟
- كوتسيك، بسبب ذيله القصير، شرح ريدكا واعاد الهر الصغير.
- لماذا لاتعود إلى بيتك؟
- بوتيكين هناك.
- ماذا يعني؟
- سوف يقودني.
- يقودك إلى أين؟ تتخيل أشياء ياريدكا.

- أبداً. سوف يمسك بعنقي ويجرني. بالرغم من أن الجميع يقولون إنه لطيف . . ولكنها ترهات. مانفع أن يكون الانسان لطيفاً؟ قال ريدكا بلهجة مثيرة.

ردَّت روزا متحمسة كذلك: انك تهتم بكلوبيك وتطعم الهررة الصغيرة. ماذا ينفعك هذا؟

- كلوبيك، انه حصان، اشفق عليه! انه لايبحث عن عبارات سخيفة من أمثال «ضمير» الخ. . .

صمت تماماً ودون أن يدري بوضوح أعلن فجأة:

- اني ذاهب لآخذ كلوبيك!

كيف لم يفكر بالأمر قبل ذلك؟ فهم بغتة ان صداقته مع كولونيل وقبلة بيدوين لم تكونا سوى مؤشر لما عليه أن يقوم به.

- وإلى أين تأخذه؟

لم يسمع سؤال الحارسة. كان يتخيل أباه يتحمل النحل على كتفه المشوه. لم يكن أمامه من حل سوى تحمل ماسوف يحدث له ولكن قبل ذلك كان عليه أن يخلص كلوبيك. قبل أن يفرقوا بينهما، قبل أن تزج به رجال الشرطة في عربة المساجين. في زاوية الباحة المظلمة كان الضوء يتسرب من نافذة العربة المسيَّجة، وكانت الأبواب الخلفية تفتح وتغلق وأشباح ترسم وتتلاشى. فخرج ريدكا يراقب عن بعد.

لم يعد يشعر بالخوف منذ هذه اللحظة. كان يعرف كيف يتصرف. لن يتلقى الأوامر من أحد، سوف يتدبر أمره، لاعلاقة له باحراق الدراجة، كانوا على وشك رؤية ماسيحل الآن!

دخل منزله وهو يمسح جزمته منظفاً اياها فوق ممسحة محدثاً حركة قوية مثل انسان بالغ... كان القلق يبدو على والدته والغضب يزيدها جمالاً وقبحاً في آن. كانت تمسح الأواني المطبخية وترتبها. لم تكن تتزين عندما كان يوتيكن يحضر إلى المنزل وها انها ترتدي قميصاً من الحرير وترفع شعرها على الموضة. لم يكن عندها زائر! حتى انها لم تنظر إلى ريدكا.

سحب من تحت وسادته رقعة كان يلمع بها الجياد وقدمها إلى والدته:

- عليك بغسلها ورتقها!
- ماذا تخترع أيضاً؟

كانت تتفحص تجاعيد وجهها أمام المرآة ويبدو أن وجهها لايعجبها.

- هل قمت بخياطة ياقة القميص للآخر؟
- الآخر، له اسم على كل حال!
- هذا لايغير شيئاً.

تكلم بقساوة مع والدته، استدار ضاحكاً وقال ساخراً:

– للناس فقط روح.
– ليس لكلوبيك روح، لبوتيكين واحدة ولك أيضاً.
يابني هل تظن أن كلوبيك مساوٍ لنا أيها الأبله الصغير؟
كان يصوب اليها نظرةً حادة ولكنها لم تكن تراه.
حدق بشعرها المرفوع وحاجبيها المصبوغين بمسحوق الفحم وفمها الملون في سنها! للمرة الأولى، تساءل عمن تكون أمه، ولكن مهمة كانت بانتظاره ولم يعد لديه وقت للتفكير. مزق صوت صفارة صمت الليل، تبعه صوت ثانٍ وأصوات أخرى.
– انه صاحبك بوتيكين... قال ريدكا بقساوة وتناول قبعته.
– صاحبي بوتيكين... عليك أن تجد رجالاً مثله. انه انسان مميز نعم؛ قرَّر أن الڤودكا تصلح فقط لزمن الحرب ولم يعد يشربها على الاطلاق.
– من الممكن أن ينتظر القادمة؟
قالت الأم بحنان: انك ابله بالحقيقة، ثم وقفت أمامه اذ كان مستعداً للخروج كما دخل.
تابع دون اشفاق: اعتقد أنه اعتاد على ذلك.
صاحت غاضبة:
– ماتفكر به لايهم أحداً. لاتزال صغيراً جداً على التفكير. اين كنت قبل مجيئك؟

- لاأدري .
- اسألك ، أين كنت؟
- هذا لايعنيك .
- هل ستجيب؟ أنت أصم؟ يالك من عنيد قذر !
وضربته على وجهه بما وجدت أمامها ، رقعة التلميع . لكن ريدكا لم يُبدِ حراكاً .
- أتريدَ صفعة أخرى؟ ألم تكتف؟
وأخذت والدته بالبكاء وتدحرجتَ دمعة سوداء على قميصها تاركة أثراً . فكته بسرعة لتزيل النثار برقعة . ولكن الأثر لم يختف . خلعت عندئذٍ القميص لتفحصه عن كثب ، هذا ماأثارَ ضحكه .
- لمَ تضحك؟ ياقليل الشفقة؟
- تبدين مثل مهرج خيالي! قال هذا وهو يصفق الباب وراءه .





الفصل التاسع

خرج بصعوبة من الباب الصغير الذي يغمره الثلج .

- ياله من تسيُّب!

شجع نفسه بصوته الأجش وانطلق بخطى رشيقة في ممرات المقبرة . لم يكن بوسعه وصف سبب اضطرابه . لم يسبق له مطلقاً ان اجتاز المقبرة في وقت متأخر . كانت الأشجار تلعب بـ«التخباية» مع القمر وتتظاهر الكنيسة بأنها لاتلاحظ شيئاً : سِرْ واصْمُت :

- ياله من تسَيُّب! صرخ أمامها ريدكا مغتاظاً وهو يمر هناك .

صهل كلوبيك كعادته. هل حذر أن ريدكا يسرع اليه بالرغم من الساعة المتأخرة؟ كان ينتظره بفارغ الصبر واستقبله رافعاً رأسه العجوز وهو يصهل.

كان القمر ينعكس في أعماق بؤبؤ الجواد الصدفي. أسرج ريدكا الحصان وحنى كلوبيك رأسه. قاده ريدكا حذراً في الطرقات الفرعية التي كانت تتعرج كالأفعى بين الأقفاص البلاستيكية، بخطى وئيدة كما لو كان في نزهة عادية. كان ركام الثلج يرتفع على جوانب الطرقات فتبدو مثل خنادق عميقة. لم يمهد منها سوى الطرق المؤدية إلى الأقفاص. كانت المصابيح تلمع عبر زجاج النوافذ المجلدة وتضيء خضرة وافرة تليها شلالات متدلية من الجليد. كان المشهد يشبه رواق المحكمة بابوابه جميعها ولكن الثلج والقمر أضفيا عليه ضخامة وبهاء، سُرَّ ريدكا لانه لم يلتقِ بأي شخص واصطحب كلوبيك إلى مكان يحصل فيه على مأوى دافئ، نظيف ومُضاء، هذا بالاضافة إلى العلف حتى الشبع. قد يأتي الطبيب البيطري في الغد ويعتني به. من المستحيل أن يفهم يوتيكين الدافع الذي جعل الفتى يخرج جواده الهزيل في ليلة قمراء. لربما يقول: «شذوذ آخر، للتدوين...» وربما يدهش كذلك من يراقب المشهد من داخل الأقفاص. كان القمر يضيء رأس جواد يبرز من بين

ركام الثلج. وكان من الممكن مشاهدة حصان يتوقف عاجزاً عن التقدم ويداً آتية لاندري من أين تمسك بزمامه قبل الانطلاق من جديد. كان كلوبيك يسير بطيئاً رافعاً رأسه بعد كل خطوة. لايخشى الظلال التي من المرجح أنه لايراها. ولايخاف من شيء بسبب السن دون شك. كان يسير إلى الأمام بخط مستقيم كما لو كان يعرف الطريق، ولربما ظن أحد المارَّة أن الحصان كان يقود ريدكا. وهكذا اجتازا الأقفاص وتذكر ريدكا ضاحكاً بأغنية: «من اذن يمر في الشارع؟» وتذكر أيضاً بشيء آخر مضحك، عندما قال سابوجنيكوف أن «الغجري لايحتاج الليل كله ليسرق أكبر جواد». كان الليل طويلاً والطريق كذلك. وباقات كثيفة من العشب الأصفر تنبثق كالأوتاد فوق الثلج. توقف ريدكا. في البعيد كانت سطوح الأقفاص تلمع في هذه اللحظة، والقمر ينير باشعته الوضّاءة كل شيء حتى كنت تلمح أشجار الصفصاف المشرقة على الوادي، وظل الطاحونة ذات الجناح الواحد.

مرَّ ريدكا بكلوبيك في ميدان السباق المليء بالحواجز التي كانت مع أسيجة الخشب اليابس والأقواس المهملة حتى قدوم الربيع توحي بالأسى، لم يكن شيء يتحرك على

ضوء القمر سوى شبحين: شبح حصان ضخم برزت عظامه وشبح طفل بليد يرتدي أنوراك.

كان ريدكا يسير دون أن يفكر بالنتائج كما سبق له أن سار على كورنيش المدرسة. استعاد الثقة بنفسه في ليلة رأس السنة هذه. كل شيء سرِّه: الاسطبل العادي الموشح برداء من الجليد، حواجز ميدان السباق، أبواب مربط الخيل الموصدة الذي شيِّد بالحجارة ويحمل شارات الكونت. كان لريدكا سره، ليس سر ليلكا ووالدته، بل سراً يتقاسمه مع كلوبيك.

كانت المرابط هادئة. ساكنة تماماً. على واجهة المدخل كانت الأشجار الوردية فيما مضى، اذ شحب لونها منذ زمن، تتلاقى في عناق مستمر، ولاتزال الدببة الثائرة متعانقة. ترك ريدكا كلوبيك لحظة تحت الشارات. فتحت مصاريع الأبواب الثقيلة من الداخل كما أبواب الفردوس. اجتازها كلوبيك بخطى هادئة: أمسكه ريدكا من جديد بزمامه، وقاده في الممر اللامتناهي الذي يقود الى المرابط بين حزم القش التي ينبعث منها رائحة مميزة، والجدران التي ترك فوقها الزمن طبقة سوداء حيث كانت تتدلى السروج بأغطيتها ذات الرائحة القوية.

خلف أبواب المرابط. كان يتخيل جوانب الجياد الراقدة دون حراك. بحث ريدكا عن مكان دون جدوى، مامن مكان شاغر، لم يخطر هذا على باله. استدار وقام بجولة ثانية أمام المرابط. اين الاستقرار؟ توقف أمام اسم «بيدوين»، رفع المزلاج وفتح باب المربط. مالعمل فيما لو خافت الفرس؟ كانا صاحبين: هي وكلوبيك. يمكنهما البقاء معاً حتى الصباح. ضحك ريدكا من نفسه. ربط كلوبيك إلى جانب بيدوين التي نظرت اليه بعينها الجميلة. لم يرد أن يعود. تسلق كومة. انها مريحة للنوم بانتظار ذهاب «سلة السلطة» (سيارة الشرطة). اندسّ بين الشوفان والقى حوله نظرة اثقلها الخمود. كان يرى في المربط الشكلين المتلاصقين أحدهما مرتباً، ذا ذيل مضفور والآخر هزيلاً مقطوع الاذنين والذيل. من سريره المعد لتوّه، كان ريدكا يستطيع أن ينشغل بالتأمل أو التفكير. «يجب أن تتعلم التفكير، قال كولونيل، الجياد لاتحب الأغبياء». عندئذ فكر بهذين الحيوانين الصامتين اللذين أحبهما. وضعهما معاً ويبدوان على أحسن حال! كان الكرب يتملكه منذ الخريف، منذ عمله الغبي أو الخطر، مثلما تريد، وهاهو أخيراً مستعد ليرقد بكل سرور! ليلة رأس السنة هذه سوف تستمر السنة كلها. . .

أخذ يفكر بليلكا وبأمه. ساورته فكرة بانه اخترع كل شيء. يجوز أن يوتيكين لم يكن ينوي القبض عليه. وان والدته لم تهتم به على الاطلاق... لم تقم الا بتقديم الشاي له! كانت تتصاعد أصوات مضغ من المرابط. قد يخيل انه نوع من الموسيقى، لابد أن كلوبيك يستسلم لفرح مضغ العلف! نام ريدكا، تهزه هذه الموسيقا.

- قُطعت بطريقة غريبة! يالها من مجزرة!

- اخرِجها لنفحصها!

- انها لاتستسلم، يجب أن تتوقع منها كل شيء! أخاف أن تقتلني وعندي أطفال....

- قدها إلى مكان العمل.

انطوى ريدكا على نفسه لدى سماعه هذه الأصوات القلقة. أدرك أن فاجعة قد حلت ورأى بيدوين في النور. كانت تعرج وتكشر عن أنيابها. لم يعد كلوبيك في المربط بل انه قُيِّد إلى عمود ويتابعها بنظره.

عندها فهم ريدكا حجم خطأه، تركهما معاً! ياله من مجنون! ونظر بطرف عينه إلى بيدوين التي كانوا يقتادونها إلى مربط منعزل. كان يعلم أنهم يربطون هناك الجياد الخطرة بين حاجزين، الجياد التي ترفص من المهاء، التي تضرب بقوائمها الأمامية وتستطيع أن تقضي على السائس

الذي تنقصه الفطنة والحذر، كان الطبيب البيطري الذي يرتدي معطفاً عسكرياً مفكوك الأزرار ينتظر إلى أن تهدأ بيروين ثم قرر أن يجري فحصاً عاماً. وأتى السائسون بالجياد تسير بطيئاً حيناً وعدواً حيناً آخر وهم ينادونها باسمائها:

- Bizerte بيزيرت!
- Liberté ليبرتيه!
- سنراه ثانية! أمر الطبيب البيطري
- Bolotsk بولوتسك!
- الى الاسطبل!

كان يجس الجياد ويلاطف أجسامها الملساء. كان يدخن نزق الحركات. لم يتوقف عن النظر إلى بيدوين التي لم تهدأ بعد. ساعد ريدكا الرجال في شد رجلها الخلفية برباط. كان يشعر بفراغ تسبب به الحزن والبأس، ويبحث بنظره عن كولونيل دون جدوى، من المؤكد أن كولونيل فهم ماحدث. لقد شاهد كلوبيك في المربط. كيف يمكنه أن يغفر له الجرح؟ كان ريدكا يستعطف نظرته بكل تعاسة. أحاط التلاميذ ببيدوين. لم يكن لها مكان لتتحرك. كانت تنصب اذنيها وتكشف عن أسنانها متعمدة الشر وتجمد جسمها كله عندما فحصها الطبيب البيطري باهتمام.

- فرس من ذهب، حسناً. سأجري لها تثبيتاً. (كان الطبيب يفكر بصوت عال ويطمن هكذا الحضور) اضغط على الكتف. هيا، انظروا، لم تمس الأوتار. لاشيء خطر اذن. قد قاومت ولم تلاحظوا ذلك! استدار ريدكا خائفاً عندما شعر بكولونيل يمسكه بكتفه ويجره على انفراد:

- أرِ كلوبيك للطبيب البيطري.

بينما كانوا يحلون بيدوين ويخرجونها من المربط، لم يتحرك ريدكا. فكرر كولونيل أمره بنظرة. سار كلوبيك خلف ريدكا الذي اقترب من الطبيب البيطري ووقف برزانة وحزن أمامه.

- هل أنت السائس؟ سأل البيطري غير مبالٍ، يجب معاقبتك. ثم متوجهاً إلى تروفيميتش:

- يجب نزع الحافر ووضع ضماد.

وتبادل مع كولونيل نظرات غريبة وهو ينفث بدخان سيجارته إلى البعيد.

- خذه.

لماذا ترك ريدكا كلوبيك على أبواب الاسطبل في ذلك الحين؟ أي ذبابة لسعته؟ لماذا صعد إلى السطح يحمل مجرفة؟ أليجرف الثلج؟ بالتأكيد! رأى سائسين يتسلقان إلى الأعلى وأراد أن يقتدي بهما، تمنى أن يتسلق السلم،

أن ينزلق على منحدر السطح، أن يستعمل المجرفة لأنه أحس في داخله أن أحداً يساعده، يقف إلى جانبه، كما سبق أن حدث له في اللحظات الحرجة: لم تكن المساعدة مهمة بحد ذاتها بل اللحظة التي تأتيك فيها: عندما يفقد ريدكا الثقة.

كان ريدكا يقذف كتلاً ضخمة من الثلج تتساقط متحطمة وكان النهار رائعاً بجماله وصفائه. كان النظر يمتد بعيداً إلى الأمام.

خلف ميدان السباق، كانت كدسة من العلف تعتمر قبعة من الثلج. في الفناء، كانت نساء بقمصان بيضاء تروح وتجيء، خادمات أم ممرضات. في الاسطبل، كان أحدهم يغسل جزمات، قد أحدثوا ثقباً في الجليد، وكان الجميع على غرار كولونيل يغسلون فيه جزماتهم كل صباح. كان كلوبيك في الأسفل، قريباً جداً. لم يسبق لريدكا أن نظر اليه من علُ. كم هي بارزة فقرات عموده الفقري رماه بالثلج، ولم يتحرك كلوبيك. كان حقاً عجوزاً، هذا الحيوان المسكين.

لمح ريدكا كولونيل يرتدي سترة رمادية للخروج وبنطالاً جديداً له واقية جلدية فوق كل ركبة.

لم يكن يرتدي على الاطلاق انوراك أم سترة مبطنة. كانت جمجمته المكشوفة تلمع تحت أشعة الشمس وهذا أمر لايزعجه. كان يدير رأسه في جميع الجهات. لعله يبحث عن ريدكا؟ اكتشف وجوده على السطح. استند كولونيل إلى السلم، لوى ذراعيه ورفع قدميه ليمر بسهولة فوق قمة السطح القرميدية. وهبط منسلاً بعد ذلك حتى وصل إلى ريدكا. ارغمه على الجلوس إلى جانبه:

لماذا فعلت هذا؟

- ماذا تعني؟

- هذه السرقة

أنزل له القبعة على عينيه، رفعها ريدكا. تفحصه كولونيل بعطف وفضول.

- ليس كلوبيك ملكاً لك. لماذا احضرته؟

لم يجب ريدكا.

- أفهم، كان لديك سبب وجيه لتقوم بهذا كنت تريد أن تقدم لنا حصاناً يجر العربات ولكننا لسنا في ميتم هنا.

- ظننت أنهم كانوا يودون القبض علي. وكلوبيك. اذن؟ ماذا كان سيحل به؟ لقد بُحَّ صوته في الليلة السابقة وكان هو أول من دهش من الأصوات التي انطلقت من حنجرته.

- سيقبضون عليَّ؟

كشف تعجبه الأجش عن بأسه. اضطرب كولونيل وقفز على قدميه ليبدأ هو أيضاً بكنس الثلج بنزق. اقتدى به ريدكا وحاول أن يصارعه ليحصل على الرفش.

- هل تجيد العمل؟

- بكل تأكيد.

- أنت سائس حقيقي، أشعث وسيء الحلاقة، دون غش!

اسندا ظهرهما إلى المدخنة وحشا كولونيل غليونه. اهتزت شجرة صنوبر في الريح على مستواهما. في الأسفل، بين جدران الثلج المنهارة، كان كلوبيك يصغي إلى حديثهما بهدوء.

- سوف نرى بوتيكين من هنا، عندما يجيء.

لم يخف ريدكا من هذه العبارات المتشائمة.

- جزاه الله خيراً! سيبحث عني، سيمسك برأسي، واحد اثنان! ولن يجد سوى لطخة حبر مكانه!

عاودته رغبة الهزيان، كان يتخيل المطاردة، كانوا يلاحقونه وهو يخبئ الجواد في الأقفاص. وكان الكلب الأبيض ينبح وبابا ياغا تكسر زجاج النوافذ...

- هل قبلت كلوبيك على شفته؟ سأل كولونيل فجأة.

أحس ريدكا بالانزعاج .

- هل رأيتني؟

- كلا . . . ولكني قبلته ، انه لطيف جداً .

نظر إلى كلوبيك الذي لم يزل واقفاً ويبدو منهكاً .

عندما ينظر اليه من فوق ، يبدو عموده الفقري طويلاً جداً ، ولكنه لايزال صالحاً للعدو ، استدار ريدكا نحو كولونيل :

- ان جدتيً وخالي بوريا يسكنون في الريف . سأذهب اليهم في هذا الصيف . كان لي حصان هناك ، جواد سيء . ولكني لم أسقط عنه .

- حصان مزرعة؟

- كلا ، متوحش ، ولكنه كان يطيعني . سبق أن رأيت حصاناً يقع في الميدان .

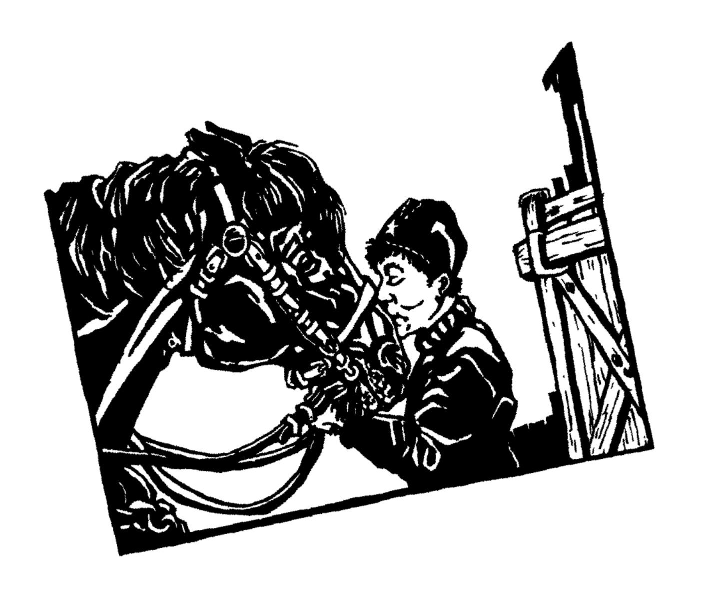
لم يجب كولونيل على الفور .

- لايسقط حصان مطلقاً من ذات نفسه . ان فارسه من يسقطه .

نظر إلى ناحية الاقفاص .

- ان والدك يشك بأمر ما . لابد أنه يبحث عن كلوبيك .

ورأى ريدكا في البعيد سيرج كوستيريا يسير بمشيته المميَّزة . . .





الفهرس

٢٠٠٠ط١/١٠/١٩٩٨







طُبِعَ فِي مَطَابِعِ وِزَارَةِ الثَّقَافَة

دِمَشق ١٩٩٨

سِعرُ النُّسخَةِ دَاخِلَ القُطر
١٢٥ ل.س

في الأقطار العربيّة ما يعادل
٢٥٠ ل.س